روايات الهلال

القدّاس

نيفيل شوت

ABU ABDO ALBAGL

ترجمة: شرقاوي حافظ

S277

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

مدير التحرير
أحمد شامخ

المستشار الفني
محمود الشيخ

مستشار التحرير
محمد رضوان

نائب مدير التحرير
حنان شعيب

سكرتير التحرير
صلاح زبادي

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة. القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج. م. ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٣٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة

سوريا ٤٠٠ليرة- لبنا ١٢٠٠٠ليرة - السعودي ٢٠ريالا- الأردن ٤دينار- فلسطين ٤دولار- العراق ٤٠٠٠دينار- البحرين ٢دينار- قطر ٢٠ريالا- الكويت ٢دينار- الإمارات ٢٠درهما- سلطنة عمان ٢ريال- اليمن ٨٠٠ريال- الجزائر ٣٠٠دينار- تونس ٨دينار- المغرب ٦٠درهما - إيطاليا ٨يورو- سويسرا ١٠فرنك- المملكة المتحدة ٧جلك- أمريكا ١٦دولارا

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وإفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الاشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يونيو ١٩٥١
البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com

طبع هذا العدد بأحبار باكين

باكين

الكتاب: القدّاس

المؤلف: نيفيل شوت

التصنيف: رواية

الناشر: روايات الهلال - دار الهلال

التاريخ: سبتمبر ٢٠١٦

رقم الإيداع: ١٧٥٧٣ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي: 978-977-07-1782-0

روايات الهلال

القدّاس

نيفيل شوت

ترجمة: شرقاوي حافظ

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية:

Requiem for a Wren

تأليف:

Nevil Shute

صدرت الطبعة الأولى عن دار النشر:

William Heinemann Ltd, 1955

لن أكون صديقا للورد مرة أخرى
وسأمقت الأنغام الموسيقية ،حيث تبدو النغمة قوية
ثم ترق، وترتد، وتتصاعد، وتتلاشى
مثلما تعود أمواج البحر بالغناء
هناك أصوات حيث تتقد بهجة الروح
وتلتقى وجها بوجه مع رغباتها
تلك البهجة التى تتمرد، والرغبة التى تهجع
سأكره الموسيقى العذبة طوال حياتى
نبض الحرب، وعاطفة الدهشة
السماء التى تتمتم، والأصوات التى تشرق
النجوم التى تغنى، والحب الذى يرعد
الموسيقى تشتعل فى القلب مثل الخمر
والملاك المسلح الذى ترتفع يداه
فكل الأحاسيس تمتزج فى كأس الروح
وتذوب الروح والبدن قطعة قطعة
فهذه الأشياء انتهت، ولم تعد لى

سوين بيرن

الفصل الأول

عندما اقتربنا من مطار إسيندون كانت الطائرة على ارتفاع خمسة آلاف قدم ، وعندما اقتربنا إلى بعد ألفين كانت هناك دوامة من الرياح تلف جناح الطائرة الأيسر.

كنت جالسا وعيناى تلتصقان فى النافذة تنظران إلى ميلبورن، سقط رأسى التى ابتعدت عنها خمسة أعوام. ربتت المضيفة على ذراعى فصرفت انتباهى عن المشاهدة لتخبرنى بأن أربط حزام الأمان، فلم أكن منتبها للإشارة . فقلت لها- آسف"، فابتسمت وقالت بنبرة هادئة: "هل تريدنى يا سيدى أن أساعدك فى النزول من الطائرة؟. هززت رأسى بالنفى قائلا لها: "سوف أنتظر حتى ينزل الجميع، فليس هناك أى مشكلة بالنسبة لى إذا أخذت راحتى فى الوقت".

فأومأت بالإيجاب وانصرفت برقة وحيوية. انتابتنى دهشة، كيف عرفت أن نزول السلم يسبب لى مشكلة، ربما هى علامة من علامات خبرتها، ولربما أخبرها طاقم طائرة سان فرانسيسكو بحالتى فى مطار سيدنى.

عدت للنافذة مرة أخرى لأتابع اقترابى من الممر وأشهد عملية الهبوط، واستغرقنى المشهد حتى وصلت الطائرة لمبنى الوصول وتوقفت.

أثناء نزول الركاب من الطائرة كنت لا زلت أنظر من النافذة لأرى من ذا جاء لاستقبالى. من المحتمل أن يكون أبى هناك فى انتظارى. إننى لم أخبرهم بتفاصيل وصولى، فقد أرسلت لهم تليغرافا فقط من سيدنى حينما وصلتها مساء أمس، وكانت الساعة الثانية صباحا فقط، علاوة على أنهم لم يكونوا يتوقعون قدومى قبل أربعة أيام، وأننا نعيش على بعد مائتين وعشرين ميلا من المطار.

كان جناح الطائرة يغطى جزءا كبيرا من صالة المطار، فلم أر أى أحد ممن أعرفهم. ففكرت أن أذهب إلى المدينة وأتصل بهم.

نزلت بعد آخر راكب من باب الطائرة وألقيت بالتحية على المضيفين وشكرتهم عندما مررت بهم. تباطأت أثناء نزولى على سلم الطائرة حتى وصلت إلى الأرض فى حالة سليمة، وتمشيت حتى وصلت إلى الصالة المكشوفة. وهناك لمحت وجها أعرفه؛ إنه هارى درو؛ كبير الخدم، جاء لاستقبالى. لقد كان اليوم دافئا وربيعيا، وكان هارى درو رجلا أنيقا جدا. فهو تقريبا فى الأربعين من عمره، له شعر أسود داكن ومجعد، وهو نشيط بدنيا، وكان يرتدى قميصا بنى اللون أمريكيا فخما بدون جاكت، مغلقا حتى الرقبة بلا كرافتة، وكان يرتدى بنطلونا بنيا مخضرا من نوعية بناطيل الرعاة، وكان البنطلون مكويا بأناقة، بحزام مزخرف وبه إبزيم براق. فلفت نظرى ورفع يديه لتحيتى. عبرت من البوابة، وجاء ليقابلنى فقلت له: "صباح الخير يا هارى، كيف حالك اليوم؟"

فأجابنى: "بخير يا سيد دونكان، لم نتوقع قدومك قبل يوم الجمعة". ثم أخذ منى الشنطة.

فقلت له: "جئت أسرع مما كنت أتوقع".

وبدت عليه الحيرة، وبالتأكيد بسبب تليغرافى، فسألنى: "هل جئت على سفينة أخرى؟، إننا اعتقدنا أنك ستطير من فريمنتال وتصل صباح السبت".

ـ لم أسلك هذا الطريق، فقد تأخرت قليلا فى لندن، وسافرت جوا كل الرحلة من نيويورك إلى فرانسيسكو ثم إلى سيدنى.

ـ جئت بالطريق العكسى؟

فقلت: هذا صحيح، وسرنا فى مبنى المطار وسألته: "كيف حال أمى يا هارى، هى ليست هنا، أليس كذلك؟

فقال: لم تحضر، إنها تخرج معظم أيام الصحو، ولكنها تجلس على الكرسى كثيرا، كما تعلم. فهى لا تخرج كثيرا هذه الأيام، لقد مر ثلاثة أشهر تقريبا منذ أن ذهبت إلى ميلبورن آخر مرة. ثم توقف أمام حامل الصحف، واستأنف لقد كان الكولونيل سيأتى لاستقبالك لولا أن هناك مشكلة بسيطة.

فاستفسرت: أية مشكلة؟

فقال: خادمة المنزل يبدو أنها انتحرت أو حدث لها شىء من هذا القبيل، لقد ماتت.

فحدقت فيه: بربك، كيف حدث ذلك؟

فقال: فى الحقيقة لا أدرى، فقد حدث هذا فى الصباح، وتحركت الساعة العاشرة والنصف لكى آتى لك هنا، إنها أخذت حبوبا للنوم.

ـ فعلت ذلك ليلة أمس؟

ـ بالضبط يا سيد آلان.

ـ من الذى وجدها؟

ـ لم تنزل لشغلها. حضر الجميع للمطبخ لتناول الشاى حوالى الساعة السادسة أو السادسة إلا ربع. ولما لم تحضر حتى السابعة صعدت آنى لغرفتها.

- آنى العجوز وجدتها؟

- بالضبط، لقد كانت ميتة. استدعانى الكولونيل، وفى الحال أحضرنا الدكتور ستانلى. الكولونيل اتصل به هاتفيا. ولكن لم يستطع فعل أى شىء، لقد كانت ميتة. بعد ذلك طلبوا الشرطة، وفى ذات الوقت وصل تليغرافك من سيدنى تقول إنك حاضر اليوم. لم يستطع الكولونيل أن يترك المكان مع كل هذه الأحداث، لذلك طلب منى أن آخذ الجاكوار وآتى لك بدلا منه.

فسألته: "لماذا فعلت ذلك؟ أهناك مشكلة مع رجل ما؟

فقطب جبينه قائلا: "لا أظن ذلك، فكومبارجانا مكان صغير ومن الصعب أن تخرج منها إلا إذا كان معك سيارة، وهى لا تمتلك سيارة. و لا يمكن أن يكون لها علاقة بأى واحد فى كومبارجانا ولا يدرى أحد بذلك. لا أظن ذلك".

- كم من الوقت وهى تعمل لدينا؟

- تقريبا سنة، أو أكثر قليلا، لقد كانت إنجليزية.

أومأت، إنجليزية أو هولندية أو ألمانية. فوجود خادمة منزل أسترالية شىء نادر. قلت: "حسنا، كنت أتمنى لو أنها اختارت يوما غير ذلك. فابتسم، ثم مضينا حيث العربات لإحضار حقائبى.

كان عمر الجاكوار عامين، ورغم ذلك كانت تبدو جديدة، فوالدى كلما تقدم بهما العمر كانا يمكثان فى المنزل طويلا. كان لديهما سيارة بويك أيضا يستخدمانها بكثرة، لقد حصلا عليها عن طريق سنغافورة قبل ذهابى إلى إنجلترا. وضعنا الحقائب فى شنطة السيارة، وقال لى هارى: تقود يا سيد آلان؟

هززت رأسى رافضا، فقد أردت أن أتمكن من رؤية الريف فى أول يوم أعود فيه إلى وطنى الأم. وقلت: قدها أنت، كم من الوقت ستأخذ حتى نصل؟

ـ ساعتين وربع تقريبا، كنت خائفا أن أتأخر.

رغم أن شوارع أستراليا مستوية وخالية تقريبا إلا أن السرعة على خمسين مناسبة جدا، سألته: هل تناولت الغداء؟

فأومأ لقد تناولت بعض الطعام أثناء انتظارى للطائرة، هل تريد أن ندخل المدينة قبل ذهابنا للمنزل؟

فهززت رأسى رافضا: دعنا نذهب لنرى ما يحدث فى المنزل.

فقال: دعنى أخبرك، بعد أن سافرت باع الكولونيل الأرض الوعرة، التى فى بادلى هيل، باعها للجنة. لقد باع مساحة خمسة آلاف ومائتى فدان، وذلك للجنود المستوطنين. كلها على الطريق الرئيسى عند مقاطعة سينكلير. ثم أبطأ فى السير لسرعة خمسة وأربعين حين أعاقته تريللا، ثم تعداها وعاد لسرعة خمسة وسبعين مرة أخرى.

ـ هذا يعنى أن لدينا ثلاثة عشر ألف فدان؟

فأجاب: ثلاثة عشر ألفا وثلاثمائة وسبعة وثمانين فدانا.

ـ وكيف يسير العمل الآن؟

فقال: سبعة وثلاثون ألفا وثمانمائة وأربعون من الغنم، وستمائة واثنتان وثمانون بقرة .

فأومأت، ورحت أقلب فى ذاكرتى. فهذا سيكون شغلى من الآن فصاعدا، فكل ما كان فى أوروبا أصبح وراء ظهرى. فسألته: هل انتهيتم من جز الغنم؟

فقال: انتهينا الجمعة الماضية.

ـ كيف تم ذلك؟

فقال: حسنا، عبأنا سبعمائة وست عشرة بالة هذه السنة.. بالة الصوف تزن ثلاثمائة باوند، وكان السعر الذى عرفته مائة وستين جنيها فى المتوسط، فصوفنا المجزوز يساوى مائة وخمسين ألف جنيه تقريبا، وهناك

فوق ذلك كله بيع الغنم والأبقار. بعد استبعاد تكاليف الإدارة، حوالى ثلاثين أو أربعين ألفا، وأكثر من مائة ألف جنيه للضرائب. ها هو الأمر لعدة سنين.

فقلت: حسنا جدا، كم كانت كمية المجزوز العام الماضى؟

فقال: ستمائة وثمان وسبعون بالة، يا سيد آلان، وهذا نتيجة المرعى الجيد، ولقد زرعنا خمسمائة فدان أخرى الخريف الماضى، عبر النهر، الذى صنعنا من هذا منطقة مانعة للنار من الفلاريس والبرسيم.

ـ لغاية أرض هاريسون؟

ـ صحيح، ولكن أسرة هاريسون غير موجودة حاليا. فلديه ممتلكات أخرى عند أرارات، وأرضه تم العمل فيها مرة أخرى.

كان أبى يستثمر الأرباح فى الأرض، ويوفر الباقى لمراسم الموت. لقد كان مصرا على أن يحسن الإنتاج الكلى عن طريق الميكنة وحفظ النسل فى الإسطبل والحفاظ على المراعى: كان يتم صناعة العلف بكميات كبيرة لموسم الشتاء، بواسطة التقنية الحديثة، حيث يوجد هناك أربعة محاريث ديزل بينها واحد زحاف، والأحصنة لم تعد تستخدم إلا على الحدود. فكان أبى يتجول فى الممتلكات بسيارة اللاندروفر بدلا من الأحصنة كما كان يفعل عندما كنت صغيرا. وذلك يناسبنى تماما حيث قدمى الصناعية تسبب لى مشكلة فى ركوب الأحصنة.

مررنا من باكوس مارش ثم إلى بنتلاند هيل، كان الجو دافئا ومشمسا فى يوم من أيام أكتوبر الذى كان هواؤه يشبه النبيذ، بروائح الربيع الفاتنة. كان المنظر رائعا من أعلى القمة، كنت أستطيع أن أرى جيلوزنج على مسافة أربعين ميلا، بما فيها منحنى الخليج الأزرق الذى يلف كوينسكليف وهيدز. وكان من جهة الغرب تظهر فى الأفق تلال الجبال الزرقاء لمسافة مائة ميل أو أكثر من كومبارجانا، فنزلنا من قمة الجبال بسرعة ٨٠ ميلاً فى طريقنا

بالارات، وكانت أشجار الوزال تبعث أريجها طوال الطريق أثناء سيرنا فى الحى الغربى.

إنها بلدى، فلكم أنا مسرور لحضورى إليها، رغم أنى آخر مرة كنت فيها كرهت وجودى فيها واشتطت غضبا حتى رحلت عنها.

كان ذلك فى عام ١٩٤٨عندما خرجت من المستشفى فى إنجلترا، وأنا أتعثر بقدمىّ الصناعيتين. حاولت على سطح السفينة أن أبذل مجهودا فوقعت مرتين من سوء الطقس، فمكثت فى كابينتى معظم الوقت غاضبا ومحبطا. ولكم شعرت بالسعادة والراحة عندما وصلت منزلنا بالحى الغربى. فمازال قلق وقت الحرب مؤثرا علىّ، وكذلك رحى الصراع فى أوروبا؛ ولكنى أستطيع أن أفعل شيئا مفيدا فى كومبارجانا برغم إعاقتى، فأبى لازال نشيطا ويستطيع أن يدبر أموره بدونى. إنى تحملت ذلك لمدة عامين؛ فطالما مات بيل وتزوجت هيلين كان علىّ أن أكون فى البيت وأحاول أن أدير الممتلكات، ولكن الأمور لم تكن على الوجه الأكمل.

بحلول عام ١٩٤٨ كانت قدماى فى حالة جيدة وكنت أستطيع التحرك عليهما بشكل طبيعى، ولكن عمرى كان ٣٨ سنة وكانت الأيام تمر. لم أكن أحتمل أن أدفن حيا فى كومبارجانا بعد كل ما أبليته فى الحرب، وأوشكت أن أصاب بالجنون لو أنى لم أهرب من ذلك بالذهاب إلى إنجلترا حيث تدور الأحداث. وأعتقد أن والدايّ كانا يتفهمان الوضع لأنهما لم يعترضا على ذهابى إلى أكسفورد لمدة عام، والحصول على شهادتى العلمية. حدث ذلك منذ خمس سنوات.

الذى لم أدركه حينئذ أن ما كنت قلقا عليه ليس إنجلترا، ولكن شبابى الذى أفتقده.

لقد عدت هذه المرة بذهن أصفى، ورميت كل شىء ورائى. لقد كنت فى التاسعة والثلاثين، متوسط العمر وناضج الفكر، وأدركت أنه ليس فى

إنجلترا فقط تحدث الأشياء الجميلة، بل فى مسقط رأسى أيضا، وتوجد أشياء لها قيمة. حتى الأشياء التى رفضتها من قبل، وهى إدارة كومبارجانا، لإنتاج المزيد من اللحوم، والأصواف كل عام، صارت الآن جديرة بالقيام بها، هى أشياء لا تثير العالم ولا تجعل منى فارسا ولكن أقوم بها بطريقة غير مثيرة. يرجع الفضل لعودتى إلى والدىّ لأنهما كبرا وبدآ يدخلان فى مقدمات المرض، ولكم أشعر بالسعادة لأنى عدت.

التفت إلى هارى الذى بجوارى وسألته: "قلت لى إن هذه الخادمة إنجليزية، أليس لها أى أقارب فى أستراليا؟

فأجابنى: لا أعرف أن لها أحداً، ربما والدك يعرف ذلك.

- وهل حصل عليها والداى من مكتب تشغيل؟

فأجاب بالنفى قائلا: "لقد ظهرت فى فورفار، قرب أحد الفنادق، كانت تحمل حقيبتها على ظهرها وتتنقل عن طريق السيارات، تقريبا كانت تجوب العالم بتنقلها فى السيارات، عملت فى الفندق مع السيدة كولينز لمدة أسبوع أو اثنين، ثم بعد ذلك جاءت فى سيارة رجل بريد. فى ذلك الوقت كان والداك يستخدمان رجلاً وزوجته، ولكن كان الزوج دائم السكر، فطردهما والدك، وعندما ظهرت هذه الفتاة، استخدمتها والدتك فورا.

- منذ متى حدث ذلك؟

فقال: دعنى أفكر، كان الوقت حينئذ شتاء، أعتقد فى أغسطس، يعنى من عام.

فأخذت أفكر قليلا، وقلت: أين كانت تقضى فترة إجازتها؟

- لا أعتقد أنها كانت تأخذ إجازات، على الأقل أثناء عملها فى كومبارجانا.

- ما اسمها؟

- جيسى بروكتر.

وأضاف: ربما تجد والديك متضايقين بعض الشيء، فقد كانت أفضل خادمة لديهما منذ أن جئت إلى كومبارجانا، وأعتقد أنهما أحباها أيضا.

- حقا؟

- أعتقد ذلك.

ثم توقف لحظة واستأنف. أظن من الأفضل أن تعرف، قبل أن تحكم بأى شيء.

فأومأت: شكرا على إخبارك لى، وسرنا فى صمت وأنا أفكر فى الموضوع: لو أنها كانت سعيدة بالفعل فما الذى يدفعها لذلك؟

فرد: "لا أعرف يا سيد آلان، لا أعرف ما الذى يدفع البنات لمثل هذا".

جلست صامتا ولا زلت أفكر، فلو أن أمى كانت تحب هذه الفتاة لكان الأمر أصعب، لا سيما إذا كانت فتاة مستقيمة. فأمى مصابة بالتهاب المفاصل ولا تتحرك تقريبا، فلا تقابل أحدا إلا نادرا، وربما تعيش بمفردها، وهذا من أسباب مجيئى إلى هنا. ففى منزل كبير مثل كومبارجانا، يعتمد على الخدم، يكون بعضهم قلقا وغير راض فى مثل حالة أمى المرضية. فإذا كانت الفتاة تعيش فى سعادة فهذا يعنى أن أمى كانت تعتمد عليها فى كل شيء، وكانت تعاملها أكثر من كونها خادمة.

أخذت أفكر وأمامى تتماوج المناظر الطبيعية فى مقاطعتى التى لا تختلف عن ولتشاير فى إنجلترا، ولكن بدون بشر، لدرجة أنك تقف من أى قمة وتنظر فى الأفق فلا ترى شيئا إلا مراعى وأغناماً. كانت هناك بعض البحيرات الضحلة، ومزارع مائية لسمك السالمون، الذى نادرا ما يصطادونه لبعدها عن المدينة، فيستطيع أى شخص أن يصطاد ما يريد من السالمون بأى طعم. فهو الريف الوحيد لمن لا يرغبون فى الأراضى، ومجرد أيام الشتاء عندما يكون الجليد كثيرا. أما فى الصيف فتكون المخاطر كثيرة بسبب حرائق الحشائش، حتى إننا نبذل جهدا ووقتا كبيرا لكى نزرع

مساحات كبيرة من النباتات الخضراء مثل اللفت كمناطق مانعة للحرائق. لم يكن الريف يثير الحفيظة سوى فى أراضيه، حتى إن هؤلاء الذين لا يحبوننا ويطلقون علينا بارونات الصوف يقولون إننا ننزل لمستوى الأغنام فى التفكير، وإننا نشبههم أيضا.

وصلنا إلى فورفار، قريتنا، التى تبعد عن منزلنا كومبارجانا بستة أميال.

أصبحنا الآن على مرأى من منزلنا، المحاط بأشجار الصنوبر الطويلة لكى تحميه من جهة الغرب، وبذلك النهر الذى يحيط به. إن كومبارجانا هو منزلى، ولا أريد أن أعيش في مكان غيره. ومن الناحية المعمارية أعترف بأن البيت ليس على هوى كل الناس. فجدى آلان دونكان، بناه فى ١٨٩٧ لقد ولد فى إيلون ما بين بيترهيد وابيدردين عام ١٨٤٥ لفلاح بسيط. لقد حضر إلى أستراليا عندما كان عمره عشرين عاما ليكون ثروته فى مناجم الذهب فى بالارات، وكان الذهب من الأعمال المربحة فى ذلك الوقت، ولكنه تعب من العمل بأجر فى المناجم فانتقل خلال العام للعمل فى مزرعة، وامتلك أرضا فى كومبارجانا واستقر فيها مع أول المستوطنين، ببلوغه سن الخمسين كان يدير أغناما ومساحة تقدر بثلاثين ألف فدان، وبنى بما يسمى منزل الرجال المرموقين.

فى عام ١٨٩٥ زار مسقط رأسه، وهناك زار قصر الملكة فى بالملار، أقطع بأنه لم ير الملكة، ولكنه عاد إلى كومبارجانا ومعه صورة لقلعة بالملار، وقرر أن يبنى واحدة مثلها فى كومبارجانا ولكن بمقياس أصغر. لم يكن هناك مهندس معمارى فى المنطقة ليساعده فى البناء، وكانت المواد المتوافرة مجرد طوب أحمر شكله مزر، وبعض المواد الخرسانية. فبدت القلعة فريدة فى نوعها. وكان التصميم من الداخل جيدا ومريحا، ومناسبا للعيش فيه. وظلت بهذا الشكل حتى وفاته عام ١٩٢٢، أتذكر ذلك جيدا وقد كنت حينئذ

طفلا. ولما ورث أبى المنزل قام بإنزال أحد عشر برجا كانت تزين فتحات القلعة وزرع عليهما نباتات متسلقة لتتماشى مع ألوان المنزل ولكن حيوانات البوسوم استغلتها كسلم تتسلق عليه وتصل إلى السقف، فقام أبى بإزالتها ودهانها باللون الكريمى الذى خفف من حدة درجة الحرارة فى الصيف. فى عام ١٩٣٨ قضى والدايّ بعض الوقت فى إنجلترا، وعندما عادا كانت أمى ساخطة من ديكور المنزل فدهنت جميع جدران المنزل والأطر الخارجية والأبواب والنوافذ باللون القرمزى.

حسنا، هذا هو كومبارجانا، منزلى الذى أعتز به.

عبرنا النهر على جسر خشبى، ودرنا تجاه المنزل ودلفنا فى الممر الذى بين الأعمدة الخرسانية التى تنمو عليها الطحالب. كان المكان فى منتهى العناية، لأن أبى كان يستخدم اثنين للعمل فى الحديقة، يقومان بالاعتناء بها طوال الوقت، كانت أشجار السرو الضخمة منسقة بشكل هندسى، كان الممر نظيفا وخاليا من العشب. هناك بيوت كثيرة فى إنجلترا أكثر جمالا من كومبارجانا ولكنها مهملة. كانت أزهار النرجس تنعكس عليها أشعة الشمس، مع أشجار الجابونيكا وهى خلف أزهار الكاميليا تعطى تشكيلا رائعا من الألوان.

وقفت السيارة الجاكوار أمام الباب، ونزلت منها، وشكرت هارى. كان أبى قد فتح الباب الأحمر ووقف على عتبته فى انتظارى. كنت أتوقع أنه كبر فى السن، ولكن لم أتخيله بهذا الكبر، فالإنسان دائما يتذكر الناس عند آخر لقاء بهم. كان أبى أنحف من ذلك، وقد ظهرت على وجهه مسحة بيضاء شاحبة لم ترق لى، ولكنه كان نفس الأب.

رحب بى قائلا: "أهلا يا آلان، لقد جئت مبكرا عما كنا نتوقع".

فقلت: "أعرف ذلك، لقد تعطلت فى لندن فلم ألحق بالسفينة، فاضطررت للسفر بالطيران عن طريق أمريكا".

فقال: "هكذا الأمر، لقد توقعنا أنك ستسافر بالطيران، ولكن من أين أتيت بالدولارات لهذه الرحلة؟"

فابتسمت: "هناك دائما طرق ووسائل".

فضحك حسنا، تعال لترى أمك"، وكان هارى ينزل حقائبى من شنطة السيارة، فقال له: "ضعها وراء الباب يا هارى، وسأجعل جون يصعد بها إلى أعلى"، ووجه لى الكلام: "إنى ممنوع من رفع أى شىء الآن".

فقلت: "أستطيع أن أقوم بذلك بنفسى، حقيبة حقيبة".

فقال مترددا: أتريد أن تفعل ذلك؟

فأومأت: "أحب أن أفعل كل شىء أستطيع أن أفعله".

فقال دون أن يذكر أى شىء عن عجزى: "وهو كذلك"، وأخبر هارى بأن يأخذ السيارة، وذهبنا جميعنا إلى الصالة الكبيرة.

قال لى: "إنك تبدو بحالة جيدة".

فابتسمت: "كنت أتمنى أن أقول الشىء نفسه عنك، ولكن يا أبى لا تبدو على ما يرام".

فقال: "أوه، لم يعد أحد منا صغيرا، ولقد كان اليوم مزعجا، أعتقد أن هارى أخبرك بما حدث".

فأومأت: "نعم، ولقد أسفت لما حدث".

فقال: "سنتحدث فى ذلك فيما بعد، هيا الآن لترى أمك، لقد جعلتها تلزم السرير اليوم". ثم توقف قليلا وقال: هل أخبرك بأننا ننام فى الطابق السفلى فى هذه الأيام؟

فقلت مندهشا: "لا".

فأومأ: "أمك لا تستطيع أن تصعد السلم بمفردها، فإما نفعل هذا أو نقيم مصعدا. لقد حولنا حجرة البلياردو لغرفة نوم، وحجرة السلاح لغرفة

تغيير ملابس، ووضعت طاولة البلياردو أعلى فى غرفة النوم، وصار الأمر مريحا جدا، فى الحقيقة أحببت ذلك".

اتجهنا لغرفة البلياردو سابقا، وقد جددوها، ومع النوافذ الفرنسية المطلة على فناء الحديقة أصبحت غرفة مشمسة، وتبعث الانشراح.

كانت أمى جالسة على السرير، لم يتغير مظهرها كثيرا. ذهبت إليها وقبلتها، وقلت لها: "أخيرا عدت، إنك تبدين بخير يا أمى".

فأمسكت بى للحظات، وقالت: أوه، آلان، يا عزيزى، من السرور أن تكون بيننا مرة أخرى، ولكن كيف جئت بهذه السرعة؟

فأخبرتها بقصة تأخيرى فى لندن، وعدم لحاقى بالسفينة، وأطريت عليها لحسن ترتيب الغرفة. ذهب أبى للخارج، وراحت تسألنى عن هيلين، فأخذت أجيبها عن كل الأسئلة التى تخص أختى التى فى لندن.

كانت هيلين أصغرنا، سافرت إلى إنجلترا عام ١٩٤٦ وعمرها أربعة وعشرون عاما، كانت شغوفا بالسفر لعالم أرحب، مثلها مثل الكثير من الشباب الأستراليين. وأصبحت فجأة مولعة بالفن وارتبطت بشاب يدعى لورانس هيلتون يعمل بإذاعة البى بى سى، ويؤدى أدوارا فى مسرحيات بالبرنامج الثالث، وتزوجا عام ١٩٤٧ ومنذ ذلك الوقت لم تعد لموطنها، وكانا قد أنجبا ولدا مشاكسا. حاولت أن أتقبل لورانس وأن أتقرب منه، ولكن لم يكن بيننا اهتمام مشترك. ولقد اختار لورانس هيلين لأنه علم أنها تمتلك ثروة لا بأس بها. على أية حال كانت سعيدة معه، وتبنت كثيرا من أفكاره، بما فيها أن أستراليا صحراء مستعمرة لا يصح للإنسان المتحضر أن يعيش فيها. كان دخله بالطبع لا يكفى لمعيشتهما المنشودة، فكان لهما بيت صغير طريف يطل على نهر فى بلدة شين وواك، حيث كانا يستقبلان فيه كثيراً من الزوار، وما يأتى من معونة من كومبارجانا.

لقد أعطيت أمى حديثا ورديا عن هيلين وزوجها وحياتهما وأن زوجها يبنى سمعة طيبة فى عالم الفن.

عاد أبى مرة ثانية، وهو يدفع بعربة الشاى، لقد اعتاد والداى أن يعيشا على الحياة الإنجليزية حيث يتناولان العشاء فى الساعة الثامنة مساء. كانت هناك مشكلة بخصوص الشاى إذ إن أبى أحضر الفناجين الخطأ ونسى أن يحضر مصفاة الشاى وغلاية الماء الساخن، فأرسلته أمى ليحضر هذه الأشياء.

وقالت لى أمى بنبرة حزينة إننا مرتبكون اليوم، فلم نعتد على أن نفعل هذه الأشياء بأنفسنا منذ مدة.

فقلت لها: "أعرف ذلك، لقد أخبرنى هارى بكل شىء، لكم أسفت لحدوث ذلك".

فقالت بصوت هادئ: "نعم، إنها مشكلة يا آلان، لقد تمنيت لو أنها حدثت فى يوم غير اليوم الذى حضرت فيه".

فقلت لها: "لا بأس، إنى مسرور أنه حدث الآن، أرى أبى لا يبدو على ما يرام".

فقالت أمى: "يبدو أنه مرهق اليوم، تذكر أنه أجرى العملية العام الماضى، وأخبرنا المتخصصون أنه لم يكن ورما خبيثا، هو مجرد إرهاق وضيق بسبب أحداث اليوم". فأومأت موافقا على كلامها قائلا: "من المؤكد أنه بسبب ذلك"، وإن كنت أعتقد أنه ليس الأمر كذلك، وأردفت". هل حدث نوع من التحقيق؟

فأومأت: "الدكتور هو الطبيب الشرعى، وسيحضر صباح الغد مع الشرطة، والدكتور ستانلى كان هنا مرة ثانية بعد الظهر، من المؤكد سيكون هناك تشريح للجثة".

فسألتها: "لماذا هى فعلت ذلك يا أمى، هل كانت مكتئبة؟

فقالت: "لا أظن ذلك، لقد كانت عادية جدا، كانت فتاة متحفظة، يا آلان. لم تتحدث عن نفسها أبدا، ولا عما يخصها مثلما تفعل معظم النساء. كان من الصعب أن تعرف فيم كانت تفكر، إنها كتوما".

- هل كانت جذابة؟ أقصد للرجال؟

فهزت رأسها: "لا أظن ذلك، إنها عادية، ولا أظنها كذلك".

كان الأمر محيرا، ويبدو أننا وصلنا إلى طريق مسدود، فقلت: "هل لديك أية فكرة عما فعلته؟"

فقالت أمي: "أعتقد أنها حادثة يا آلان، لقد كانت بجوار سريرها علبة حبوب المنوم، علبة كبيرة، وليس بها سوى حبتين فقط. دكتور ستانلي قال لا بد أنها أخذت على الأقل عشرين حبة."، واستطردت بعد لحظة توقف". أظن أنها أخذت واحدة للنوم، ثم استيقظت من كابوس أو ما يشبه ذلك شبه نائمة وأخذت واحدة بعد الأخرى دون أن تدرى، من المؤكد أنها حادثة".

ربما حدث ذلك، فسألتها: "هل كان فى العلبة حبتان؟

- نعم.

فقلت: "لو أنها تريد الانتحار لأخذت كمية كبيرة، لتؤكد ذلك. هل تعرفين أى سبب يجعلها تتخلص من نفسها يا أمى؟

- أنا متأكدة أنها لم تفعل ذلك، لقد كانت على طبيعتها ككل يوم.

فأطرقت قليلا، وقلت: "ألم تتسلم أى خطابات بالأمس؟

- لم يأتها أى خطابات قط.

عندما عاد أبى قالت أمى له: "أحكى لآلان عن جيسى"، ثم لمحت فى عينيها بعض الدموع الندية، ولاحظت انكسارا فى صوتها وقد استأنفت: "يسأل عن أى خطابات قد تكون وصلت لها بالأمس".

فقال أبى: "لم تصلها خطابات إطلاقا منذ قدومها إلى هنا حسب ما قالت آنى، وعمرى ما رأيت خطابا باسمها، ولا حتى آنى قالت شيئا كهذا".

فقالت أمى: "ولا حتى أنا".

فنظرت إليهما قائلا: "شىء غريب، ولا هى كتبت خطابا لأية جهة؟"

فقال أبى: "لا أعتقد ذلك، فأنا الذى آخذ الخطابات للبريد، ولم تطلب منى ذلك بتاتا، ولا أعرف خط يدها. آنى تقول إنها لم ترسل أو تتلق أى خطاب".

فسألت: "هل هى تقرأ وتكتب؟ على اعتبار أن بعض الخادمات لا يفعلن.

فقالت أمى: "نعم، هى فتاة متعلمة. أعرف خط يدها، فأحيانا كانت تدون بعض الرسائل من التليفون. لقد رأيتها يا ريتشارد، ألا تعرف خط يدها؟

فقال أبى: "نعم، ولكن هو المكان الوحيد الذى كنت أرى فيه خطها".

تحركت أمى من السرير قليلا لكى تصب الشاى، بينما سألت: "ألا تعرفان أحدا من أقاربها؟ ألم ترسلا تليغرافا؟

فقال أبى: "لا، لم نفعل يا آلان، فليس فى غرفتها أدنى شىء يدلنا على أى شىء عنها".

مازال تفكيرى مرهقا من تفاصيل السفر ولكن سألت: "يجب أن يكون هناك شىء ما، شهادات تطعيم، أو جواز سفر، أكيد".

فقال أبى: "لا شىء على الإطلاق، ليس هناك أى مستند فى غرفتها، ليس إلا بعض الملابس، وبعض الروايات، وهذه الأشياء كانت من المنزل أيضا".

فقالت أمى، ولايزال فى صوتها بعض ارتعاش: "هذا صحيح، لقد أخبرتها بأن تستطيع أن تقرأ أى كتاب تشاء".

فحملقت فى أبى: إذن ليس هناك من نرسل له لنخبره بموتها، ولا نعرف من هى، ومن أين هى؟

فقال أبى: "نعم، يا آلان، هذا صحيح، لا نعرف من هى ولا من أين. لقد جاءت إلينا من الفندق". ثم حكى لى ما عرفته بالفعل من معلومات عنها.

وقالت أمي: "قالت آني إنها كانت تعمل في سيدني، وتعتقد أنها جاءت من إنجلترا منذ عدة سنوات. ولكن لا أعتقد أن هذا بصحيح. لأنها قالت ذات مرة إنها جاءت إلى أستراليا قبل عملها بالفندق بعدة أسابيع".

فسألت: "ألم تخبر أحدا ماذا كانت تفعل قبل مجيئها للفندق في فورفار؟.

فهزت أمي رأسها: "لم تتحدث إطلاقا عن نفسها".

فقلت: "ربما كانت متزوجة".

فنظر لي والدايّ باستغراب، فالفكرة كانت جديدة بالنسبة لهما. فاستطردت قائلا: "ربما كان الزواج غير موفق وكان هنا في أستراليا، وكان كل شيء مسجلا باسمها بعد الزواج، ولذلك أرادت التخلص من كل شيء يكشف عن هويتها. هذا يفسر الأمر تماما. إنها أرادت أن تبدأ حياة جديدة.

فقال والدي: "هذه فكرة جديدة تماما". ثم توقف لحظة، واستأنف". هذا يتماشى مع الحقائق بالضبط".

رحت أعضد فكرتي قائلا: "من المؤكد أن بروكتر هو اسمها قبل الزواج. يجب أن نحاول لنجد زوجها، أو لتفعل ذلك الشرطة، فأعتقد أن هذا من عملها. يجب إيجاد الزوج ويتم تبليغه بموتها.

فتنهد أبي بارتياح: "أراك أصبت الحقيقة يا آلان، إنها فكرة لم تخطر على بالنا، إنها توضح الأمر برمته." ثم مال لجانبي: "لا أخفيك سرا، كنت قلقا من هذا الأمر، فغدا سيكون التحقيق، وسيجلب لنا متاعب كثيرة لو لم نتعرف على هويتها".

فقلت لما تراءى لي أنه ليس قادرا على أن يقوم بأي عمل". لا تقلق يا أبي، سأذهب للتحقيق بدلا منك".

فقال: "يجب أن آتى معك، وبلا شك ستكون عونا لى إذا جئت يا آلان، أظن الحياة هنا فى الريف تبعد المرء عن العالم. لم يخطر على بالى أنها يمكن أن تكون متزوجة".

لم تقل أمى شيئا، وبدا لى الأمر أننا تكلمنا كثيرا فى أشياء غير مستساغة. فبدأت أسأل عن الأملاك.

لقد جرب والدى رش سوبر فوسفات فى إسطبلات وزرائب، وساعد هذا فى زيادة حصيلة الأرض. وهو فى طريقه لإعادة الكرة فى الصيف التالى. لقد شيد أماكن جديدة لجز الصوف، لم أرها من قبل، وقام بإعادة تشييد الإسطبلات القديمة وزودها بماكينات جديدة. وقام بإنشاء أربع حظائر مزودة بألواح خشبية لتحل مكان القديمة، التى أنشأها جدى. ولقد قام منذ سنتين بإنشاء محطة تعمل بالديزل لتوليد الكهرباء الكافية لكل المنازل التى تقع فى محيط الممتلكات.

لقد أعطانى أبى الخطوط العريضة لهذه الأنشطة أثناء تناول الشاى، وبالطبع كانت أمى فى شوق لمعرفة حياتى فى لندن، وبالتالى كان هناك الكثير لكى نتحدث عنه. وكانت أمى أثناء الشاى أكثر إشراقا من ذى قبل، وقد أبدت رغبتها فى القيام لتناول العشاء أفضل من بقائها فى السرير طوال هذه المدة والتفكير فى الخادمة الميتة فى الطابق العلوى. لقد رتب أبى أن يأخذنى فى جولة باللاندروفر فى العزبة لمدة ساعتين قبل العشاء، حتى تستعد أمى للعشاء وتشارك أنى، خادمتنا العجوز فى إعداده، مع بلودين، التى اعتادت أن تأتى للمساعدة فى مثل هذه الظروف.

انتهينا من تناول الشاى، ووضعنا الفناجين على الترولى الذى أخذه أبى عبر الصالة الكبيرة ذات الشرفة إلى حجرة إعداد الطعام. ومكثت مع أمى بعض الوقت قبل أن أحمل حقائبى لغرفة نومى فى الطابق العلوى.

قالت لى أمى: "أعتقد أنك مخطئ بشأن جيسى يا آلان".

فقلت لها: من أية زاوية؟ ما الخطأ؟

فقالت فى هدوء: "بشأن زواجها، أنا متأكدة أنها غير متزوجة".

فظللت صامتا، فمن الصعب المجادلة فى موضوع مثل هذا من عازب مع امرأة فى مثل عمر أمى، ثم قلت لها: "هل هى أخبرتك بهذا؟

فهزت رأسها: لا، فهى لم تتحدث مطلقا عن حياتها الشخصية، ولكنى متأكدة من أنها غير متزوجة.

الفصل الثانى

حيث إن الكِبَر زحف على أبى وأمى، فراحا يقللان من مصاريفهما على أنفسهما إلى مبلغ محدد من الدخل. فلم يحتفظا بأى خيول للسبق كما يفعل جيرَاننا، ولقد كبرا على متعة إنفاق المال. كانا يحصلان على كتاب شهريا من جمعية الكتاب، وكانا قد اشتريا بعض الاسطوانات للجراموفون من ميلبورن، فقد أصبحا يجدان المتعة فى الأشياء القديمة عن الحديثة. مثل الكتب القديمة التى قرآها منذ عشرين سنة، فهما يجدان فيها المتعة الآن، ومثل الجراموفون، والأثاث الذى اشترياه منذ ثلاثين سنة، عندما أقاما فى كومبارجانا.

كانت مخصصات هيلين ومخصصاتى تمثل شريحة كبيرة من صافى الدخل بعد الضرائب، الذى يتراوح ما بين العشرين والثلاثين ألف جنيه. وكان يتم توفير جزء كبير من المتبقى لمصاريف أى مستحقات فى العقارات عند حدوث أى وفاة، والتى تقدر بحوالى ربع مليون جنيه فى حالة وفاة والدى، وكان الاحتياطى النقدى كافيا لأى متطلبات. فى بلدان أخرى

وأوساط أخرى، تستلزم الثروات التى مثل ثروتنا حفلات صاخبة ورقصا ومجونا. ولكن فى الحى الغربى لم تكن الأمور تجرى هكذا. من المؤكد أن هؤلاء الاستراليين المنتجين للصوف، الذين اجتازوا الأوقات العصيبة التى كانت فى الثلاثينيات عندما وصلت أوقية الصوف لشلن، انتابهم الخوف من الوضع الاقتصادى فراحوا يخزنونه بالوضع الصحيح لما تبقى لهم من عمر. وأستطيع أن أشهد أنه فى كومبارجانا والمحطات الأخرى، كانت الأموال المكتسبة تنفق بشكل سليم.

كان شغف أبى كبيراً بالممتلكات، وكانت معظم أمواله الفائضة تذهب للإصلاحات. كان هناك جديد فى كل مكان نذهب إليه باللاندروفر. فهناك حظائر جديدة، ومغاسل بالرش للأغنام، ومركبات، وطلمبات، ومولدات، ومنازل، ومطاحن، وسدود، كلها جديدة. كانت تعتبر مثل هذه الإنفاقات فى أيام العسرة قبل الحرب العالمية الثانية نوعا من التبذير، ولكن الأيام تغيرت، وتغير معها أبى. لقد تضاعفت تكاليف العمالة ثلاث مرات منذ الثلاثينيات، وتضاعفت حصيلة الممتلكات، حتى إن أى ماكينة توفر ساعة من وقت العامل كانت تعتبر جيدة.

دخلنا فى حظيرة طويلة لجز الصوف، كانت خالية ونظيفة، لأن موسم القص انتهى وستظل غير مستعملة حتى العام التالى. فأرانى كيف رتب المنصات، والطاولات، والصناديق والآلة الجديدة. لقد قام بعمل جيد، فتخيلت مدى الإنتاج، أو إذا جاز التعبير، كان المكان فى ذروة نشاطه، وكانت الأغنام يتم جزها بمعدل ثلاثمائة فى الساعة. لقد كنت مسرورا جدا لهذا الإنجاز. وإن كانت صورة الخادمة الميتة فى مخيلتى.

رحنا نستريح لعدة دقائق فى ممشى طويل ورطب من الحظيرة، وكنت مستندا على طاولة فقلت : أمى غير مصدقة بأن الفتاة كانت متزوجة".

- غير مصدقة؟

فهززت رأسى، بينما أبى يقول: "لم أفكر فى هذا من قبل، من المحتمل أنها تكون متزوجة".

- كم كان عمرها؟

- ثمانية وعشرين أو ثلاثين، من الصعب تحديد العمر بالضبط.

- لقد أخبرنى هارى بأنها لم تأخذ إجازة على الإطلاق.

- لا أعتقد، لقد ذهبت مرة أو اثنتين إلى بالارات للتسوق، وفيما غير ذلك لم تذهب لمكان قط.

قطبت حاجبى: إذن ماذا كانت تفعل بأيام إجازاتها؟

فأطرق للحظات، وقال: "أعتقد أنها كانت مغرمة بالمكان، كانت معتادة أن تذهب مع بلودين. أعتقد أنها كانت تحب الكلاب، وكانت تحب الصيد أيضا. أنا لم أرها خارج البيت كثيرا، ولكن الرجال كانوا يقولون إنها تجيد صيد الأرانب، سواء بالمسدس أو البندقية. قالوا إنها كانت جيدة فى التصويب"، ثم توقف لحظة، واستأنف: "كنت أتساءل هلى هى ابنة فلاح، فى بلدها الأصلى".

فأومأت: أنت لا تعرف من أى مكان هى فى إنجلترا؟

فقال: "لا أعرف، أنى تقول إنها من لندن، وإن كنت أظن أنها لا تعرف على وجه اليقين".

- هذا لا يتماشى مع كونها ابنة فلاح.

- أعلم ذلك.

جلسنا فى صمت للحظات ثم قلت: "هل سيأتى الطبيب الشرعى والشرطة صباح الغد؟".

فأومأ: "لا بد أن يأتوا للحصول على تصريح الدفن، وبالطبع سيكون هناك تحقيق".

- سيكون الأمر محرجا لو أننا لا نعرف من هى بالضبط.

فعض على شفتيه، وقال: "بلا شك". وقد لاحظت عليه ارتعاشة فى رأسه لم ألحظها من قبل وهو يستطرد". هذا الأمر يجعلنا كما لو كنا غير مهتمين بها".

فقلت له: "أنا لست قلقا من ذلك يا أبى، فهى لم تكن فتاة صغيرة وأنت مسئول عنها، إنها كانت كبيرة".

وحرك يده تجاه رأسه كمن يريد أن يوقف الارتعاشة: "نعم، ولكن الأمر على أية حال سيء، كما لو أننا لم نهتم فعلا".

ثم نظر إلىّ قائلا: "إنه شيء جميل بالنسبة إلىّ أمك أنك حضرت، كاد تفكيرها يتوقف، كن معها يا آلان بقدر الإمكان حتى تنتهى الجنازة، حدثها عن إنجلترا، أو أى شيء آخر".

- هل ستفتقدها؟

فأومأ: "ستفتقدها جدا. فعندما تتقدم المرأة فى العمر، وتجد بجانبها فتاة مسئولة ولطيفة ستشعر بالراحة. هى خسارة كبيرة بالنسبة لها يا آلان".

- هل كانت أمى مغرمة بها؟

قال أبى: "أعتقد ذلك، فالبنت كانت ملتزمة، وكانت تفعل أشياء لأمك قبل أن تفكر فيها، يعنى، كانت ترعى أمك رعاية كاملة".

لو أنها كانت كذلك مع أمى فإذن كانت تحب كومبارجانا، وكل ما أسمعه عنها يسير فى هذا الاتجاه، فلماذا انتحرت إذن؟. فحدقت فى أبى وقلت: "ماذا تعتقد فى نظرية أمى بأنها كانت حادثة؟ أنا لا أريد أن أتكلم أمام أمى، هل تعتقد أنها من النوع الذى يمكن أن تنتحر؟

فقال: "ببساطة أنا لا أعرف ما سمات النوع الذى يمكن أن ينتحر بالنسبة لى كانت فتاة عادية، ولطيفة و متوسطة الجمال، ولا أتوقع أنها تنتحر، فكما قلت لك إنها فتاة عاقلة. ولكن من يدرى؟"

فسألته: "هل تعتقد أنها كانت حادثة يا أبى؟ أنا لم أسمع أن أحدا تناول كمية من حبوب المنوم خطأ. أعنى تبتلع كل هذا العدد ومعه كمية من الماء، كم عدد الحبوب التى أخذتها كما ذكر الدكتور؟

- أكثر من عشرين.

- حسنا، لا يمكن أن تتناول هذا العدد عن طريق الخطأ، لو أن العدد واحدة أو اثنتين لكان الأمر مقبولا، ولكن عشرين!.

فقال أبى: "لو أن الأمر عن عمد لأخذت الكل وما أبقت فى الزجاجة حبتين".

فمرت لحظة صمت ثم قلت: "لا أستطيع أن أصدق أن الأمر عن طريق الخطأ، بل هو عن عمد".

تركنا الحظيرة واستأنفنا جولتنا باللاندروفر. فى ضوء المساء وصلنا عند مزرعة السالمون القريبة من النهر، حيث يوجد عدة أحواض مائية يتم التحكم فيها عن طريق هويس صغير، يتدلى من النهر كأغصان شجر الصفصاف. عندما أخبرتهم بأنى قادم الربيع المقبل، وضب أبى هذه المزرعة المهجورة، وبدأ فيها إنتاج الآلاف من أسماك السالمون استعدادا لمجيئى، لقد قصد أن يحتفظ بها لعدة أشهر ثم يدفع بها بعد ذلك فى المجرى الرئيسى. وسيصبح الصيد بعد ذلك ممتعا.

توقفنا عند أحواض المياه، على صوت خرير الماء، وبدأ يسألنى عن حياتى فى إنجلترا، فقد حصلت على شهادة فى القانون من جامعة إكسفورد، ولكن لم أستمتع بها كثيرا.

ورحت أحكى له عن حياتى فى هيئة التشريع فى لينكون إن، قائلا بنبرة هادئة: "لم أعرف أنى لم أضيع وقتى، ولم أعرف أن التصريح لى بالمحاماة سيساعدنى كثيرا فى إدارة كومبارجانا".

فابتسم قائلا: هل تعتقد أنك ستريد أن تذهب إلى لندن مرة ثانية؟

فقلت: "لا أعتقد ذلك، فهذا ليس فى مخيلتى، ولكن سأريد أن أزورها للمتعة فقط، قل ولو بعد عشر سنوات، لأرى ماذا يحدث هناك، أما عن العيش فيها فلا أعتقد ذلك أبدا".

- ليس مثل هيلين؟

- لا.

فسألنى أبى: كيف يبدو لورانس؟ فأبى لم يره، إذ إن العمر تقدم به وأمى، وما عادا يحتملان السفر لإنجلترا. وهذه إحدى اختلافاتى مع أختى هيلين فهى لم تفكر أن تحضر زوجها لزيارة أستراليا لكى يراه والداى.

فأجبته: "عادى، ولكنى لا أشعر معه بارتياح، ولا أظن أنك ستشعر بارتياح أيضا".. لقد أدى أبى الخدمة أثناء الحرب الأولى فى جاليبولى وفرنسا، أما فى الحرب الثانية فقد قضى ثلاث سنوات فى شاحنات النقل فى منطقة شمال غرب أستراليا الحارة وكان عمره حينئذ تجاوز الستين عاما. بينما لورانس لديه مشاكل فى صحته، فأدى الخدمة فى بى بى سى. فاستطردت فى كلامى: "ليس لديه أية مشكلة، فهو معروف جدا كناقد دراما، والناس تتحدث عنه، ولا أعتقد أنه يحب السفر".

فقال أبى مبتسما: "أليس زوجا مخلصا لها؟، ليس هناك كثير من النساء أو عدد معقول".

فتضاحكت معه: "لا أعتقد أن هناك شيئا من هذا القبيل، فهيلين ذات شخصية قوية، وحريصة، وليس الذى مثل لورانس من يضحى من أجل الحب".

فسألنى أبى: وماذا عنك يا آلان، ألا تفكر فى الزواج؟، فهززت رأسى فقال: يجب أن تفكر فى هذا، إنك تتقدم فى العمر، عمرك تسعة وثلاثون عاما، أليس كذلك؟

فأومأت: "لم يصادفنى شىء من هذا".

فكرر: "يجب أن تفكر فى هذا، فالأمر سيكون موحشا إذا عشت بمفردك هنا من بعدنا".

فقلت: "ليس الأمر بهذه السهولة عندما تكون عاجزا، فالمطلوب فتاة لها صفات خاصة لكى تتزوج من رجل ليس له أقدام".

فقال بتردد: "فقط فكر فى هذا، أعتقد أنك لا تفكر فى الطيران مرة أخرى".

فرددت: فى الحقيقة فعلت، ولكن ليس فى تيفون، بل فى نادى لندن للطيران، لم أشأ أن أخبرك بهذا، فقد كنت أخاف على أمى من القلق.

- وهل ستفعل ذلك هنا؟

فقلت: "لا أعتقد ذلك، فقد فعلت ذلك لكى أتأكد من أنى لا أخاف من الطيران، وأنى أستطيع الطيران مع قدمىّ بهذا الوضع. لقد طرت حوالى مائة ساعة، ولكن لم أرد أن أستمر، إن لم يكن هناك هدف، ولا يوجد هنا أى هدف لذلك".

فابتسم قائلا باهتمام :كيف كان شعورك عندما ركبت الطائرة أول مرة، هل كنت خائفا؟

فقلت: "قليلا، كما كنت بمفردى لأول مرة، ولكن المرء يشعر بالأمان فى مثل هذه الأمور البسيطة".

تركنا أحواض مزارع السمك، وتمشينا نحو اللاندروفر. وأبى يقول لى: أمك تعد لك عشاء متميزا هذا المساء، هل تريد أن تغير ملابسك؟

فأجبته: إنها تحب ذلك، ماذا تفعلون على العشاء فى العادة؟

فقال أرتدى فى الشتاء جاكيت للعشاء، أما فى الصيف فأرتدى البدلة لأننى أحب أن أتمشى بعد ذلك".

فقلت له: "معى جاكيت للعشاء فى الشنطة، فالقميص متسخ بعد هذا السفر حول العالم، فلنغير، فإن أمى تحب ذلك.

وجدنا أمى فى البيت، فى غرفة الجلوس، جالسة أمام قطع الخشب المشتعلة، ترتدى فستانا أسود، وشالا على كتفيها. وقفنا ندفئ أنفسنا، لأن المساء كان بدأ فى شدة البرد، ورحنا نشرب النبيذ الأحمر ونحن نتكلم عن لندن وهيلين. ثم صعدت لغرفتى لكى أغير ملابسى، فوجدت شخصا ما وقد أشعل بعض قطع الخشب، وترك بعض الخشب الصمغيّ فى سلة كبيرة، والغرفة معبأة برائحة خشب الطيب المحترق. أعتقد آنى فكت الشنطة وأخرجت ملابسى الخاصة بالسهر ووضعتها على السرير.

ما أدهشنى أثناء فتح حقيبتى الثانية، مستمتعا بما يحيط بى، أن أكون الوحيد الذى سينام فى الدور العلوى من هذا البيت الكبير. فأبى وأمى اللذان كانت غرفة نومهما، وملابسهما بجوارى، مع الحمام المجاور، أصبحا ينامان فى الدور السفلى، وتحولت غرفة نومهما إلى صالة بلياردو. فى الجانب الآخر من الممر كانت هناك غرفة فى الركن، هى غرفة هيلين، التى أصبحت الآن غرفة إضافية، وبعدها، وبعد حمام منفصل توجد غرفة الضيوف، وهى خالية الليلة بلا شك. أما بجوارى فيوجد حمام آخر، وغرفة كانت خاصة ببيل، نادرا ما تستخدم الآن. فبيل مات فى الحرب فى نورماندى عام ١٩٤٤ فى الوقت الذى كنت فيه عائدا إلى كومبارجانا أعاد أبى وأمى ترتيب الغرفة وأخرجا منها مقتنيات وصور بيل، وحولاها إلى غرفة ثانية للضيوف، معتقدين أن ذكريات بيل والحرب قد يكون لها أثر سيء علىّ، فلا شيء يخص بيل تبقى. ولكنهما نسيا الحمام. منذ ١٩٤٦ وأنا لا أدخل الحمام دون أن أختلس النظر فى غرفة بيل لعلها تكون مفتوحة، فيظهر بيل وهو يتجول فيها بدون ملابس تقريبا، وهو ابن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة.

لقد حدث ذلك معى فى هذه الليلة حيث تحممت قبل أن أرتدى ملابس العشاء. لازال بيل حيا فى حياتى رغم مرور تسع سنوات على آخر مرة

رأيته فيها، فى ليمتنجون فى هامبشاير، ومرور ستة عشر عاما منذ أن استخدمنا هذا الحمام معا. من الصعب أن ينسى المرء أخاه الوحيد.

أخيرا جلست فى الحمام أفكر فى هذه الأشياء وأنا أستمتع بالمياه الساخنة بعد أيام من السفر، وفى فندق سيدنى، لقد كنت أشعر بالوحدة فى الطابق الأول. ولكن لم أكن وحيدا بمعنى الكلمة، فعبر السلالم والشرفة التى تطل على بهو المنزل كان هناك جناح الخدم، فوق المطبخ مباشرة، حيث تنفصل غرف نومهم عن الغرف الأساسية بباب دوار. كانت هناك أربع غرف نوم للخدم، فى إحدى هذه الغرف كانت تقيم آنى، خادمتنا القديمة، وفى أخرى ترقد جثة الخادمة الميتة.

لم أرخ الستائر، فمازال هناك ضوء من الخارج لحظة كنت أرتدى ملابسى أمام قطع الخشب المشتعلة. ووقفت ألقى نظرة من النافذة على آخر شعاع من الضوء المنبعث قبل أن أدير وجهى للمرآة لكى أربط الكرافتة. كانت تترامى أمامى المروج الخضراء الممتدة حتى النهر والتى تحيطها أشجار الصنوبر والبلوط والأشجار الصمغية التى كانت تتوارى خلفها محطة الوقود. وكانت تمتد وراء النهر المزارع الخاصة بنا لمسافة ميلين. وتمتد سلسلة الجبال التى تظهر بلونها الأسود تحت أشعة الشمس.

كان هنا نوع من الاطمئنان، فلا حرب ولا تهديد من الحرب، ولا توجد طائرات حربية أو دبابات أو جنود. إنه المكان الذى يلجأ إليه الإنسان عندما يمتلئ العالم إزعاجا لكى يؤدى ما يريد فى سلام. لربما تعود الحرب مرة أخرى، وأعود لكى أؤدى واجبى مثلما فعل أبى من قبل، ولكن فى هذه اللحظة أشعر بالسعادة لأنى بعيد عنها تماما، وأنى عدت إلى كومبارجانا مرة أخرى لأرعى الماشية.

انتهيت من لبسى، ونزلت حيث ينتظرنى والداى، وسألا هل كل شىء فى غرفتى على ما يرام؟ فأجبت: "كل شىء تمام". وأردفت ضاحكا". لقد شعرت

وكأنى تركت الغرفة بالأمس وليس من خمس سنوات".. بلا شك فى غضون خمس سنوات تتغير الأشياء كثيرا، وهناك بعض الأشياء يجب أن أغيرها وقتما أستطيع. فهناك أشياء لم يعد لها فائدة، لقد كانت تواسينى عام ١٩٤٦ بعد الحرب، أى منذ سبع سنوات، فلست بحاجة إليها الآن، ويجب أن أتخلص منها.

احتسيت بعض النبيذ الأحمر مع أبى، ثم جاء وقت العشاء. إذ ظهرت السيدة بلودين وقد وضعت رأسها على الباب، وهى تبدو غير مهندمة، وقد تدلت خصلة شعر بيضاء على وجهها، وطوت كمها حتى الكوع، وترتدى مريلة من الخيش، ونادت: "العشاء جاهز على المنضدة يا مدام دونكان".. فشكرتها أمى، وانصرفت.

لمحت أمى وهى تنظر إلى أبى، وأبى يبادلها النظرات. من المؤكد أن الأمور تغيرت بعد وفاة تلك الخادمة، وعليهما أن يكيفا أنفسهما على الوضع الجديد.

ذهبنا إلى غرفة السفرة، وكان كل شىء بالنسبة لى على ما يرام، أما بالنسبة لأمى فكان الوضع مختلفا. فترنحت لكى تعدل من وضع الأشياء على الطاولة حتى انتهت من إعادة ترتيبها فى الوضع الذى تريده وهى تقول: "أخشى أن تكون الأشياء غير مرتبة ترتيبا صحيحا هذه الليلة يا آلان، سوف نعيد ترتيبها فى خلال أيام".

فقلت لها: "كل شىء على ما يرام يا أمى".

فقالت بهدوء: "فى الحقيقة الأمور ليست على ما يرام منذ عام، فقد نسيت أن أدرب أحداً على ترتيب الأمور بوضع مقبول".

ـ كانت فتاة جيدة، أليس كذلك؟

ـ كانت متعلمة، ويكفى أن تقول لها الشىء مرة واحدة لكى تتقنه، أعتقد أنها من أسرة متميزة.

فقال أبى: "كانت معتادة على الاستماع إلى الراديو اللا سلكى".

- الراديو اللا سلكى؟

فقالت أمى: "اعتدنا أبوك وأنا حينما نقوم بأى احتفال، بمناسبة عيد ميلاد أو بإنتاج مبيعات الصوف، أن نتناول الشامبانيا مع العشاء، ونستمع للموسيقى. كان أبوك يضع اسطوانة ثم يتركها فى الغرفة، ويترك الباب مفتوحا حتى نتمكن من الاستماع إليها ونحن فى الخارج، فكانت هى تستطيع أن تغير الاسطوانة، وكانت تعرف كل الموسيقى التى نستمع إليها، فما كنا نتضايق من أية اسطوانة تشغلها".

فقال أبى وهو يتوجه إلى أمى بالكلام: "اعتادت تعرف ما نريد، أتذكرين عندما علمنا بقدوم آلان كيف سألتنا، بعد أن انتهت من إعداد العشاء، أن تضع اسطوانة؟"

فقالت أمى: "سيمر وقت طويل قبل أن نجد فتاة مثل جيسى".

يبدو أننا انجرفنا إلى الموضوع مرة أخرى، فرحت أفكر فى موضوع آخر أخبره لأمى لكى أصرف تفكيرها عن الخادمة وموتها، ولكن أيقنت أنى أخبرتها بكل ما لدى من مواضيع. فخطر على بالى بيل وتفاصيل مصرعه، ولكن تراجعت فليس هذا هو الوقت المناسب له. ربما قصة رحلتى وما لاقيته فى السفر يكون موضوعا مسليا ويخرجها من تفكيرها. فقلت لها: "لقد قضيت أربعة أو خمسة أيام فى نيويورك، إنه مكان مثير، وأحببت أن أعمل هناك.

فقال أبى، وقد أدرك ما أعنيه: كيف تبدو بالفعل؟، هل تبدو كما نرى فى الأفلام؟

فقلت: "أعتقد أنها كذلك من الناحية الشكلية، فتستطيع أن تكون صورة عنها بشكل ما قبل أن تذهب إليها، أما فيما يتعلق بالناس فلم أصادف حتى

هذه اللحظة أحدا مثل هؤلاء الذين نراهم فى الأفلام، لربما هناك أمريكان يشبهونهم".

فقالت أمى: "ربما يبالغون فى وصفهم عندما يضعونهم فى المسرح أو السينما. إننا نفعل ذلك أيضا. كل البلدان تفعل ذلك. فأنت لا ترى أناسا كالذين على المسرح".

فقال أبى، ولازال ممسكا بدفة الحديث: أظن أنهم مضطرون أن يفعلوا ذلك فى السينما. هل ذهبت إلى لوس أنجلوس؟

فقلت: "لا، لقد قضيت عدة أيام مع شاب من سان فرانسيسكو"، وهكذا مضينا فى الحديث عن الولايات المتحدة طوال فترة العشاء.

كان أبواى ينامان فى العادة مبكرا، والمرء دائما ما يفعل ذلك فى الريف لأنه يستيقظ فى السابعة صباحا ليشحذ همة الرجال. ومنذ أن أجرى أبى العملية وكان ينام فى الساعة التاسعة بناء على أوامر الطبيب، ونظرا لمرض الشيخوخة الذى ألم بأمى فأصبح الاثنان ينامان فى هذا التوقيت، رغم اعتقادى أنهما يستغرقان قرب الساعة فى قراءة قبل النوم. لقد اعتدت عندما كنت مقيما هنا بعد الحرب، أن ألعب الشطرنج مع أمى بعد العشاء، ولم أمارس اللعبة منذ ذلك الحين، حتى كدت أنسى حركات القطع، ولكن لكى أصرف ذهنها عن الحادث اقترحت عليها أن نلعب دور شطرنج احتفالا بعودتى. لقد فرحت بالفكرة، رغم أنها لم تلعب الشطرنج فى غيابى إلا نادرا، فذهبت وأحضرت رقعة الشطرنج المزخرفة التى اشترتها فى باريس قبل الحرب، والتى كانت تنتمى لأحد القصور فى توران، والآن ها هى فى الحى الغربى بقطعها العاجية تقبع بجوار كرسى أمى عند المدفأة. لقد لعبنا دورين، حتى جاءت الساعة التاسعة والنصف، موعد النوم.

لملمت الرقعة، ووضعت الأشياء فى أماكنها، وساعدت أمى لتنهض من على كرسيها وهى تقول: "إنه لأمر صعب أن أذهب للنوم مبكرا فى أول

مساء لك هنا يا آلان، ولكنها أوامر الطبيب ستانلى، علاوة على أن أباك يستيقظ مبكرا".

فقال أبى: "خذ لنفسك كأس ويسكى يا آلان، وها هى الصحيفة لو شئت القراءة".

فابتسمت قائلا: "لا تشغل نفسك بى، فربما اعتدت أنا أيضا على النوم والاستيقاظ مبكرا، إنها أجمل شىء فى حياة الريف".

تمشيت مع والدتى وهى تتوكأ علىّ وفتحت لها الباب، وأثناء مرورنا فى الصالة قالت لى: "لكم هو جميل أن تكون بيننا يا آلان - لقد كنا نشتاق لقدومك"، ثم توقفت قليلا واستأنفت". إنه عون كبير لأبيك، وخاصة فى تلك المشكلة".

فقلت لها: "لا تقلقى، كل شىء سيصبح على ما يرام فى غضون أيام".

فقالت بهدوء: "أظن ذلك". ثم خطت خطوتين واستطردت". أحسبها كانت تعيسة جدا لكى تنتحر، دون أن أعلم، كان يجب علىّ أن أعرف ذلك، طالما كانت تعيسة. إننى أشعر باستحقاق اللوم، كما لو أننى فشلت بشكل ما، أو أننى تسببت فى تعاستها دون أن أدرى".

فقلت لها: "لا تقلقى نفسك يا أمى، كلنا نعتقد أن ذلك كان حادثا".

- ربما كان كذلك، أتمنى ذلك.

عندما وصلنا لباب غرفتها قبلتها وقلت لها: "تصبحين على خير يا أمى".

فأمسكت بى لحظة: "لكم أنا مسرورة لأنك هنا، معنا، يا بنى".

بعدما ذهب كل من أبى وأمى لغرفة نومهما، عدت إلى غرفة الجلوس، وأخذت أفكر فى حادث الخادمة، إنه يشغل بال أمى كثيرا. وكلما فكرت فيه وجدته معقدا. لم أستطع تقبل فكرة أن أمى فعلت شيئا تسبب فى تعاسة الفتاة. نعم، الكبار والمرضى يكونون أكثر عصبية ونزقا. ولكن كنت بعيدا

لمدة خمس سنوات وأنا أعتبر أمى ليست عصبية، ولا تبدو كذلك حاليا. مهما كانت الأسباب التى جعلت الفتاة تنتحر فليس بينها هذا السبب. من المؤكد أنها كانت مخططة لذلك، وإلا ما تخلصت من كل مستند يتعلق بها. إنى أتساءل عما فعلت بأوراقها.

لقد خطرت على بالى فكرة القتل، ولكن سرعان ما استبعدتها. لقد قرأت قصصا بوليسية كثيرة، التى تجعل المرء يتقلب على أفكار كثيرة غريبة. فليس هناك أى دافع لارتكاب جريمة قتل فى مثل هذه الحالة، وليس هناك ما يدعو لذلك فى منزل كومبارجانا.

لربما تعرف آنى شيئا لم تخبر به أيا من والدىّ، على أية حال سأقابل الآن آنى. لقد كانت آنى فى كومبارجانا من قبل مولدى. لقد نزحت من قرية قريبة من بيترهيد فى أسكتلندا، وكانت فتاة صغيرة كانت تعمل فى الأسماك، تنظف وتعلب سمك الرنجة على رصيف الميناء. أظن أن جدى كان يعرف أباها، ماكونشى العجوز، عندما كان صبيا، وربما عندما عاد إلى موطنه عام ١٨٩٥، على أية حال جاءت آنى وأخوها جيمس ليعملا عند جدى عام ١٩٠٨ أو ١٩١٠، وكان عمرها حينئذ تقريبا عشرين عاما. كان جيمس لا يزال يعمل معنا مربى ماشية حينما كنت طفلا، وكانت آنى تعمل فى المطبخ، ولكن جيمس تركنا عام ١٩٢٠، واشترى عزبة قرب مورتلايك، بمساعدة جدى له عن طريق ضمانه فى قرض بنكى. ولكونهما من أسكتلندا، عاشت آنى وجيمس على الكفاف، وكان يوفران كل بنس يقع فى يدهما، وكان نتيجة لحالة الركود فى الثلاثينيات، عندما أصاب الإفلاس كل فرد، ومعظم العقارات تم عرض بيعها فى المزاد العلنى، اشترى أراضى وأصبح صاحب عزبة. ولكن آنى مازالت تعمل لدينا فى كومبارجانا. لم تتزوج قط، وتأبى أن تعيش مع جيمس رغم أنها تفخر بنجاحاته.

تساءلت لو أن آنى مازالت مستيقظة أم لا، فتركت غرفة الجلوس وتوجهت إلى غرفة السفرة فلمحت نور المطبخ لا يزال مضيئا، فدخلت من الباب الدوار فوجدتها واقفة بجوار الطاولة.

قلت: مساء الخير يا آنى، كيف حالك؟. لم تتغير آنى كثيرا، إلا أن جسمها أصبح أقل، وظهرت بعض الشعيرات البيضاء مع انحسار قليل فى الرأس.

فقالت: "بخير، وأنت كيف حالك؟، إنه لمن السرور أن تعود إلينا يا سيد آلان".

فقلت: "على ما يرام، مبسوط لأنى عدت إلى بيتى مرة أخرى".

فقالت: "طبعا، ليس هناك أفضل من بيتك، كيف وجدت أباك وأمك يا سيد آلان؟

- ليس للدرجة المثلى، فلم أتصور أنهما كبرا لهذه الدرجة".

- لم يعد فينا أحد صغيرا.

- ولكنك لم تتغيرى كثيرا.

- يعنى، ينتابنى الروماتيزم بين الحين والآخر، ولكن أحاول أن أحافظ على صحتى.

فقلت: "أعتقد أن حادث اليوم أثر على أمى كثيرا".

- طبعا، فهو صعب عليها أن يحدث مثل ذلك الحادث هنا.

فاستندت على حوض الغسيل الصلب: غريب أن ترتكب هذه الفتاة مثل هذا الأمر، هل كانت تعيسة فى حياتها، أليس لديك أية فكرة؟

فأجابت: "لا أعتقد ذلك، فقد كانت هادئة، ولاسيما فى الأيام الأخيرة كانت فى منتهى الهدوء".

فرحت أبحث عن أى مفتاح: هل كانت عابسة؟

فهزت رأسها: "لا، بل كانت متزنة، وسلسة جدا، ولكنها لم تتكلم عن نفسها إطلاقا. كنا مرتاحين لهذا الوضع، ربما لأنى أنا هكذا، فلم أحاول أن أتطفل عليها، وهى لم تحاول أن تتطفل على شئونى الخاصة".

- هل تعرفين إذا كانت تتعاطى أى شىء للنوم؟ هل كانت من النوع الذى يتعاطى كثيرا من الأدوية؟

فهزت رأسها: "لا، ولكن كان هناك فوار هضم على حوض الغسيل، وأقراص مهدئة، وكانت هناك الزجاجة التى أخذها الطبيب".

- ولكن ألم تكونى تعلمين أين كانت أقراص المنوم؟

- لا، لم أكن أعلم يا سيد آلان.

- ألم تكن هناك أى خطابات أو أوراق فى غرفتها؟

- ولا ورقة، باستثناء كتابين من البيت.

فنظرت إليها: "شىء غريب، يجب أن تكون هناك أوراق، جواز سفرها الذى جاءت به من إنجلترا، ماذا حدث له؟".

فهزت كتفيها: "ربما تخلصت من كل شىء طالما كانت مخططة للانتحار".

- أتعتقدين أنها خططت لهذا يا آنى، ألا تظنين أنها حادثة؟

- ليس لى أن أقول هذا، ولكن إذا كانت حادثة كنا وجدنا أى أوراق أو ما شابه.

فقلت بعد أن فكرت للحظات: "أين يمكنها أن تحرق هذه الأشياء؟"

فقالت: "فى المحرقة الرئيسية، خلف المنزل، يمكنها أن تحرقها هناك".

- دون أن يعرف أحد؟

- تستخدم المحرقة فى الصباح والظهر والليل، ولكن ما بين ذلك لا أحد يذهب هناك.

فنظرت إلى موقد الطبخ قائلا: ألا يمكنها هنا؟

فهزت رأسها بالنفى: "لا، لايمكنها ذلك فأنا المسئولة هنا، وكنت سأعرف أى شىء يمكن أن يتم هنا، لا أظن أنها حرقت أية ورقة هنا".

فوقفت صامتا، أقلب أفكارى فى هذا اللغز، ثم نظرت إليها: "أليس هناك أى شىء بالفعل بين حاجياتها يدلنا عليها مثل مجوهرات أو قلادات... أية شىء؟"

فهزت رأسها: أتريد أن تلقى نظرة فى غرفتها يا سيد آلان؟

ترددت، فذلك يبدو انتهاك لخصوصية فتاة ميتة، أن أفتش فى غرفتها عن أشياء أرادت أن تحجبها عنا. ولكن لقد قام غيرى بفعل هذا، من المؤكد أبى فعل ذلك، وكذلك أمى، والشرطة من المؤكد قلبت كل شىء وفتشت فى ملابسها بل وملابسها الداخلية. ومن غير المحتمل أنه يمكننى أن أضيف شيئا جديدا، ومع ذلك من الجبن أن أرفض الذهاب. فسألتها:

" هل هى هناك، فى الطابق العلوى؟

فقالت: "نعم، إنها راقدة هناك مغطاة بملاءة"، وراحت تنظر إلىّ، ربما تتذكر عندما كنت طفلا أجرى حول المنزل فقالت: "ليس هناك شىء يبعث على الخوف يا سيد آلان".

فقلت: "أعلم هذا، ولكن ليس من الصواب التدخل دون سبب قوى. ولكن أعتقد إنه من الأصوب أن ألقى نظرة".

فقالت: "سآتى معك".

أشارت لى أن أتقدمها، ولكن طلبت منها أن تتقدمنى للمكان، فصعدنا عن طريق البهو الخلفى فوق السلم الخلفى النظيف، إلى حيث غرف الخدم. كان هناك ممر قصير ينتهى بباب دوار يؤدى إلى البيت الرئيسى بجوار غرفتى، وكانت هناك غرفتان أخريان على الجانب الآخر من الممر. لم أكن معتادا على هذا الجانب من المنزل، رغم أنى كنت فيه حينما كنت طفلا.

اقتادتنى آنى لباب آخر على اليسار، فسألتها قبل أن تفتح الباب: "هل
ذه حجرتها؟"

فأومأت بالإيجاب

فسألتها: فى أى غرفة تنامين أنت؟

فأشارت إلى الحجرة المجاورة على نفس الجانب: "هناك يا سيد آلان،
د طلبت منا الست الكبيرة أن نشغل هذه الغرف لوجود إضاءة جيدة
مناظر لطيفة، فالغرف الأخرى مظلمة إلى حد ما".. فأومأت، الغرفتان
للتان تسكنان فيها تطل على نفس الاتجاه الذى تطل عليه غرفتى، على
نفس منظر الهضاب، لقد كانت غرفة بيل والحمام تقع بين غرفتى وغرفة تلك
الفتاة الميتة.

فسألتها: "هل سمعت أى شىء غريب الليلة الماضية يا آنى؟"

فهزت رأسها بالنفى: "لا شىء على الإطلاق".

وتوقفت لحظة ثم فتحت الباب، وأضاءت النور، ودخلنا غرفة النوم. الغرفة بسيطة، مطلية أركانها الخشبية بالأبيض، وحيطانها باللون الكريمى. كانت مؤثثة بشكل ملائم، غرفة نوم بسيطة مصنوعة من الخشب الاسترالى، عبارة عن سرير، وتسريحة بأدراج عليها مرآة، ودولاب، بالإضافة إلى طاولة وكرسى. كانت الفتاة راقدة على السرير، ومغطاة بملاءة.

كان على الطاولة منبه صغير أمريكى الصنع، وزجاجة حبر. فتحت الزجاجة فكانت مملوءة حتى المنتصف، فتوجهت نحو آنى: "هل كان معها قلم حبر؟"، وكنت أتحدث تلقائيا بصوت هامس وكأننا فى كنيسة.

فقالت: "نعم، لقد رأيت واحدا فى شنطتها"، وفتحت درجا على يسار التسريحة وأخرجت منه شنطة جلد مهترئة بعض الشىء لونها أزرق داكن. فتحت الشنطة وأخرجت منها قلم حبر باركر، لونه أزرق غامق، فى حالة جيدة، ولا يزال سنه مبللاً بالحبر، فقد كان يستخدم من فترة قصيرة.

أعدته فى الشنطة، ورحت أفحص باقى الأشياء. كانت هناك علبة تجميل صغيرة، وكيس نقود صغير به بعض النقود، وهناك بعض الأشياء التى تستخدمها المرأة عادة، كالمشط، والروج، وثلاثة مفاتيح فى حلقة. ولا يستدل على أى شىء من تلك الأشياء، ونظرت فى الدرج، فهناك بعض المناديل، والجوارب، لا تمثل شيئا بالنسبة لى. وعدت إلى الكيس وفتحته مرة أخرى. فقلت لها بنفس الصوت الهامس: "ماذا كانت تفعل بنقودها؟ أليس هذا كل ما كانت تمتلكه؟"

- كان لها حساب فى مكتب البريد، لقد كانت تذهب بين الحين والآخر إلى فورفار لكى تودع النقود.

فسألت: أين هذا الدفتر، هنا؟

فهزت رأسها: "لا، لم أره، ولقد كنت هنا عندما كان البوليس يفتش هنا".

- هل تعلمين المبلغ الذى كانت تدخره؟

فهزت رأسها: "لا أدرى".

كان هناك ثلاثة كتب على التسريحة، لم تفدنى بشىء غير أن ميولها كاثوليكية. كان كتاب". الأيام الأخيرة لهتلر". موضوعا بين كتاب". آن فى المرتفعات الخضراء". وكتاب". الخزعبلات".. بحثت عن كتاب مقدس أو صلوات فلم أجد شيئا. سألتنى آنى: "هل تريد أن ترى ملابسها يا سيد آلان؟"، وراحت تفتح الدرج الأيمن.

بلا شك أزعجتنى بتدخلها المفاجئ. فقلت: "أفيها أى شىء، ألم تنظرى فيها؟"

فقالت الشرطة فتشت كل شىء بدقة.

فقلت: "دعيها مكانها"، وتحولت من النظر إلى الأدراج لأنظر حولى فى الغرفة فلمحت حقيبتين فى أحد الأركان، فذهبت إليهما وتفحصتهما،

كلتاهما كانت قديمة، وكانت واحدة منهما غير مألوفة الشكل، لربما أجنبية، ولكنهما كانتا فارغتين وليس عليهما أى بيانات. فسألت: "أليس هناك أى حقائب أخرى؟"

فقالت بتردد: "أعتقد هذا فقط، لقد كنت أتساءل إذا كانت هناك شنط أخرى أم لا، فقد كنت أظن أنها قامت برحلات كثيرة قبل مجيئها إلى هنا، وهى تحمل حقائبها من الباب الخارجى إلى هذه الغرفة، كانت لا تحمل أكثر من حقيبة على السلم. ربما صعدت السلم ونزلت منه مرتين، لقد حدث ذلك منذ مدة، وكنت وقتها فى المطبخ فلم انتبه جيدا".

- لم تأت هنا كثيرا؟

فهزت رأسها بالنفى: "لم أدخل غرفتها بتاتا، يا سيد آلان، وهى أيضا لم تدخل غرفتى. كانت الست الكبيرة تدخل الغرف بين الحين والآخر لتطمئن على نظافتها".

وقفت ونظراتى تتجول فى الغرفة، فلم يبق إلاّ القليل لفحصه. كانت الغرفة مزودة بحوض غسيل، وعليه بعض الصابون وفرشاة الأسنان من ماركات عادية. وكان فوار الهضم والمهدئ على رف قريب من الحوض، ولم يكن هناك أى أثر لأدوية، ولا أدوات تجميل أو عطور، مما بدا لى غريبا على حجرة امرأة.

لم يعد هناك شىء يستدعى البقاء فى الغرفة، فلا شىء يمكن معرفته بعد ذلك. فاتجهت نحو الباب. توقفت آنى بجوار السرير وقالت بصوت منخفض، وهى تشير إلى الملاءة: اتريد أن تلقى عليها نظرة، يا سيد آلان؟

فهززت رأسى قائلا: لا شىء سيفيدنا من ذلك، ولقد فتشنا بما فيه الكفاية، فدعيها. أليس هناك أى قلادة أو شىء من هذا القبيل تحت المخدة؟

فهزت رأسها بالنفى: "لا، لا شىء، لقد فتشنا بعناية عندما كانت الشرطة هنا".

فخرجت إلى الطرقة وهى خلفى فقلت لها: "حسنا آنى، أشكرك. سوف أكون على ما يرام بعد أن ينتهى هذا الأمر، ونعود لحياتنا الطبيعية".

فقالت: "نعم، لقد أقلق هذا الحدث كل فرد. لقد سعد والداك بقدومك جدا".

فأومأت: "نعم، لكم أنا سعيد لأنى جئت فى الوقت المناسب لكى أساعدهم فى هذا الشأن". ثم استأنفت بعد لحظة صمت". على أية حال شكرا يا آنى، تصبحين على خير".

فقالت: "لا شىء يستحق الشكر يا سيد آلان، تصبح على خير".

مررت من خلال الباب الدوار إلى المنزل الرئيسى فإلى غرفة نومى. كانت النار هادئة فأضفت قطعتين من الخشب ونزلت من السلم بخطوة بطيئة لأتناول بعض الويسكى وآخذ جولة حول البيت قبل صعودى إلى النوم.

صببت لنفسى كأسا من الويسكى ووقفت أمام الجمرات الخامدة فى غرفة الجلوس، والصمت يخيم على البيت. مازلت أشعر بالسرور لأنى عدت إلى البيت لكى أقوم بالعمل الذى يناسبنى والذى رفضته منذ خمس سنوات، ولكن سرورى غمرته أحداث ذلك اليوم حتى إنى لم أستطع التفكير فى شىء آخر. فى الجو العائلى المريح تكمن متاعب عميقة وخفية لا يعلم بها الآخرون، متاعب تجعل فتاة تبدو متزنة وعاقلة ترتكب جريمة انتحار، هذا الحدث الذى لا يناسب بلدة مثل كومبارجانا. لربما هذا الحدث شىء شائع فى المدن الكبرى، حيث الناس مرهقون من الإجهاد، ومن متاعب الآخرين.

أما فى بلدان صغيرة مثل بلدتنا يسودها الناس المتسامحون، مثل أبى وأمى، والذين يستخدمون أناسا نقية طوال السنين، من الصعب أن تقع مثل هذه الكوارث. فجميع المشاكل التى تحدث فى كومبارجانا هى من النوع

البسيط، ولم يحدث فيها مثل تلك الأحداث من قبل. ومن المزعج أنها حدثت الآن. فهل حدث فى هذه البيئة الهادئة البسيطة ما يعكر صفوها من خطأ ما لا نعرفه؟. إنى أشعر بالرغبة فى معرفة ذلك، بل من الواجب أن أكتشفه.

لم أستطع أن أركز فى أعمال المزرعة، فهذه المشكلة شغلتنى بالدرجة الأولى. ما الدافع الخفى الذى جعل هذه الفتاة تتخلص من كل شىء يكشف عن هويتها، حتى دفترها البنكى؟. ربما لم يكن لديها أى رصيد فى حسابها البنكى، وربما صرفت كل ما معها. من المؤكد أن الشرطة تأكدت من ذلك. بكل الاعتبارات، كانت تعيش حياة مريحة، ولم تكن فى حاجة أن تصرف أى نقود. إنى أعرف تقريبا الأجر الذى كانت تتقاضاه، ففى الخمسة عشر شهرا تقريبا ادخرت حوالى مائتين أو ثلاثمائة جنيه. ماذا حدث لذلك المبلغ؟. ربما تم تحويل المبلغ لحسابها فى البنك، مما يعطينا مفتاحا للمشكلة، أو سحبته. وهل هناك محام ما، فى بالارات، لديه وصية بهذا المبلغ؟ ربما حدث ذلك، وإن كان احتمالا ضعيفا.

كيف تم تخطيط ذلك بعناية، وكيف أنجزت كل هذه الخطوات التى أدت إلى موتها بحرص دون أن تترك خلفها أى دليل؟. أكيد التهمت النار جواز السفر، فهى لم تكن فى حاجة إليه. وأيضا من المؤكد أنها تخلصت من الخطابات فلم تعد فى حاجة إلى قراءتها. وبلا شك حدث الشىء نفسه للتذكارات والهدايا. وكذلك لرصيد البنك فالرحلة التى تخطط لها لا تحتاج أى نقود. لقد نظفت حياتها من كل شىء مثلما ينظف المرء مكانا كان يجلس عليه. وبعد أن فعلت ذلك نامت لكى تموت. بالنسبة لأى شخص عادى مثل هذه الانفعالات كان لا بد أن تصاحبها هذه التضحيات، ولكن لم يظهر شىء من هذه النوعية. وبكل الحسابات، لو أنها كانت مخططة لموتها لذهبت إليه وهى بشوش، وبراحة بال. لقد كانت تبدو رابطة الجأش بالنسبة لأمى ولآنى، رغم أنهما قالا إنها كانت أكثر هدوءا من العادة.

لقد مرت على ذهنى فكرة غريبة وهى لو أن أقراص المنوم لم تكن كافية لإتمام عملية الانتحار لكانت فى موقف صعب حيث لا جواز سفر ولا أى نقود ولا أى شىء يثبت شخصيتها. لو تم اكتشافها قبل أخذ هذه الأقراص، أو تم إنقاذها وذهبت إلى المستشفى، لتغيرت النظرة إليها ولواجهت صعوبات فى استرداد مالها أو استخراج جواز سفر. فابتسمت ابتسامة ساخرة، وكبحت بسمتى، فالفتاة من المؤكد أنها كانت فى مشكلة لدرجة أنها فكرت فى الموت، وهى الآن ميتة!

كيف كانت متأكدة من موتها؟، نعم هناك طرق مؤكدة للانتحار، ولكن أقراص المنوم ليست واحدة منها. فعندما تأخذ أقراص المنوم بغرض الانتحار تنام أولا ثم يأتى الموت، إذا جاء، بعد ذلك بعدة ساعات. ثم يقرر الطبيب المتمرس فى العقاقير وفى كمياتها القاتلة إذا كان الكم الذى أخذته كافيا لحدوث الموت أم لا. ولكنى لم أسمع أى شىء يبين أن الفتاة كانت على دراية بالعقاقير، ربما كانت ممرضة قبل ذلك، ولو كانت كذلك لأخبرت أمى بذلك لأنها كانت فى حاجة لذلك.

كل ما سمعته عن الفتاة أنها كانت متعلمة، وذكية، وأنها كانت متزنة وعقلانية. فكيف كانت متأكدة من الموت حتى إنها تخلصت من كل شىء يدل عليها بحرقه فى المحرقة؟. بلا شك أنها كانت متأكدة من حدوث الموت، لذلك من المؤكد أنها كانت على معرفة تامة بالعقاقير وإلا ما كانت تتخلص من كل شىء.

لربما كان الويسكى مؤثرا، رغم أنى لم أتناول الكثير، لأن العبارات كانت تخطر على بالى معكوسة. ما كانت تقدم على التخلص من أشيائها إلا إذا كانت على علم بالعقاقير، وإلا كانت ستخفيها.

كانت ستخفيها حتى تستردها فى حالة كانت أقراص المنوم غير فعالة، ولم تؤد إلى الموت. لقد افترضت بعد حديثى مع أنى أنها أحرقت كل شىء

فى المحرقة الرئيسية، ولكن ليس هناك أى دليل على أنها فعلت ذلك. ومازالت آنى فى مخيلتى، أخذت أفكر فى موضوع الحقائب مرة أخرى. فآنى قالت إنه كان لديها حقيبتان فقط فى غرفتها. لربما كانت هناك ثالثة. ربما وضعت فى تلك الحقيبة الثالثة جميع ما يخصها من أشياء مهمة، واحتفظت بها فى مكان يمكنها الرجوع إليه إذا ما لم تفلح عملية الانتحار، مثل محطة القطارات.

هذه الفكرة مستبعدة، لأنه فى كومبارجانا من المستحيل أن تخرج بحقيبة بهذا الشكل. فليس هناك أتوبيسات أو أى وسائل نقل عامة فى كومبارجانا أو فى محيط خمسة أميال منها. فكان عليها أن تأخذها فى سيارة خاصة من سيارات المنزل، وبلا شك لا يمكنها أن تفعل ذلك دون أن يلاحظها أحد ويتساءل عما يحدث، ولم يذكر أى فرد فى المنزل شيئا من هذا القبيل. وبذلك من المؤكد أن هذه الحقيبة فى كومبارجانا، فى المنزل، فبالطبع لايمكنها أن تنزل بالحقيبة على السلم أو الذهاب إلى الفناء دون أن تلحظها آنى. لا بد إذن من أن هذه الحقيبة التى بها الدليل موجودة داخل المنزل، بيننا.

صببت لنفسى كأسا، وجلست على كرسى أبى أمام النار الخامدة، فلست أعتقد فى التسرع فى التفكير، وهذا الموضوع يحتاج تفكيرا متأنيا. إذا أرادت هذه الفتاة أن تخفى شيئا فلا بد ستخفيه فى مكان لا يمكن لأحد غيرها الوصول إليه.

من المرجح أن يكون هذا المكان فى الطابق العلوى، فلما تكون آنى فى المطبخ أو غير موجودة فيه يكون الطابق العلوى كله تحت تصرفها، فأبى وأمى نادرا ما يصعدان إلى هذا الطابق العلوى. لا بد أن تكون الحقيبة فى أى دولاب فى إحدى غرف النوم. فالطابق السفلى من الصعب أن تستخدمه مع وجود آنى وأبى وأمى فى المنزل. ومن الصعب أن تأخذ أشياءها بعيدا

عن المنزل، فى أى مبنى ملحق به، فالعمال سيرونها، وهى لا تضمن ألا يراها أحد، أما فى الطابق العلوى فهى تضمن ألا يراها أحد.

لو أراد شخص أن يفتش فى الدور العلوى فمن أين يبدأ البحث؟ أى الأماكن أقرب لها لكى تخبئ أشياءها دون أن يراها أحد؟.هناك غرفتان للخدم فارغتان أمام غرفتها وغرفة آنى؛ فلقد كانتا تستخدمان كغرفتين للحطب، أو للتخزين كما هو حاليا. فحقيبة وسط كميات من الأشياء القديمة ستظل سنين تحت التراب، ولن ينتبه لها أحد إلا بعد سنوات عندما يخرجون هذه الأشياء القديمة لبيعها فى سوق خيرية، وقد يراها أحد ما ويفكر كثيرا فيما تحتوى عليه الشنطة، بعدما يطوى النسيان اسم جيسى بروكتر.

كلما فكرت أكثر، ازداد يقينى بأن الحقيبة لا يفصلها إلا الممر الذى يفصل الغرفتين، فهو أقرب مكان للعقل والمنطق.

تركت غرفة الجلوس وشققت طريقى إلى أعلى فى الصمت الذى يخيم على المنزل. ألقيت نظرة على غرفتى، ووضعت قطعة من الحطب على النار، وترددت للحظة، ثم أحضرت كشافا كهربيا صغيرا من الدولاب، فأنا لا أسافر مطلقا دون أن يكون معى واحد من هذه الكشافات. ثم اتجهت بعد ذلك إلى الممر، ومررت من الباب الدوار إلى قسم غرف الخدم، وألقيت نظرة على غرفة الفتاة الميتة لكى أتأكد من نظريتى، ومضيت للغرفة المعنية وأضأت الكشاف فرأيت مفتاح الإنارة، وأضأت النور.

كانت عبارة عن غرفة نوم بها سريران للنوم، والأثاث متواضع كغرفة نوم للخدم، بمراتب على السريرين دون أى فراش، أكيد كان الخادمان الزوج والزوجة يعيشان فى هذه الغرفة، فرحت أفتش فى أدراج التسريحة الموجودة، وفتشت هنا وهناك، ولم يكن فى الغرفة دولاب، والنتيجة أنه لا شىء فى الغرفة.

وكانت هناك الغرفة الأخرى التى تقابل غرفة آنى، فمشيت فى الممر حتى وصلت إلى الغرفة وفتحت بابها. إنها الغرفة التى أتذكرها، فهى الغرفة التى كانت تستخدم كغرفة للخزين. هناك أسرة مفككة ومسنودة على الحائط، وحقائب كبيرة وصغيرة، وأدوات بستنة، وكراسى سفن ومظلات بحر، وستائر، وخزنة صغيرة، وعصى، ورماح، وكثير من الأشياء التى تستغنى عنها االبيوت الريفية وتخزنها عبر السنين. وقفت أمام الباب، ورحت أفكر من أين أبدأ البحث.

شعرت بحركة فى الخلف، فى غرفة آنى، ورأيت النور من تحت الباب. فوقفت أمام باب غرفة الخزين وقد شعرت بالحرج، فقد خرجت آنى من غرفتها، كانت ترتدى ثوبا لونه أزرق باهت، وخصلات من الشعر الأبيض تتدلى على كتفيها، فقلت بشىء من الغضب: "كل شىء على ما يرام يا آنى، إنى ألقى نظرة فقط".

فقالت: "أوه، آسفة يا سيد آلان، ولكنى أحسست بحركة فأردت أن أعرف ماذا يحدث"، وتراجعت لكى تعود إلى حجرتها، ثم توقفت لتقول: هل كنت تبحث عن شىء ما على وجه الخصوص؟

فقلت بعد تردد: "لقد خطر على بالى أن الفتاة قد يكون لديها حقيبة أخرى فى مكان ما".

فردت: "لا أعتقد ذلك يا سيد آلان، لقد فتشت هنا اليوم بعد الظهر".

فحدقت فيها، لقد كنا نفكر نفس التفكير، وقلت لها: "أفتشت هنا؟"

فقالت: "نعم، بعد أن ذهبت الشرطة، مر على بالى لربما حزمت الفتاة أشياءها ووضعتها فى هذه الغرفة، فقمت بالتفتيش هنا بعد الظهر بشكل جيد".

- ألم تجدى أى شىء؟

فهزت رأسها بالنفى .

فألقيت نظرة على الخردة والحقائب المتراكمة: "ألم تجدى شيئا هنا؟"

فهزت رأسها: "لا، لقد فتحت كل الحقائب وفتشت فيها".

- ولا شيء فى هذا الدولاب؟

- لا يوجد به إلا شمعدانات ومصابيح كنا نستخدمها قبل الكهرباء".

- وهل فتشت هاتين الحقيبتين الكبيرتين؟

فأومأت: "نعم، فلا يوجد إلا بعض الستائر القديمة فى إحداهما، وفى الأخرى بعض أزياء الكولونيل، لقد فتشتها جيدا يا سيد آلان".

إذاً لا يوجد سبب لبقائى أكثر من ذلك، فأغلقت الباب خلفى وأنا أقول: "شكرا لك يا آنى، لقد كانت مجرد فكرة خطرت على بالى".

فقالت: "نفس الفكرة خطرت لى يا سيد آلان، فكرت ربما خبأت شيئا من حاجياتها هنا، ولكن يبدو أنها أحرقت كل شيء".

فقلت وقد عدت إلى الممر: "نعم، من المؤكد أنها أحرقت كل شيء، عذرا لقد أزعجتك يا آنى، تصبحين على خير".

- تصبح على خير يا سيد آلان".

عدت من خلال الباب الدوار إلى غرفتى، وأنا أشعر بالإحباط، لأننى توقعت أن أجد شيئا ما فى غرفة الخزين. وبدا لى إلى حد كبير أن الطابق العلوى من كومبارجانا هو أفضل مكان لكى تخفى فيه أشياءها. جلست على كرسى مريح أمام النار فى غرفتى، ورحت أفك رباط قدمى اليسرى من أعلى الركبة إذ بدأ يضايقنى قليلا. أشعلت سيجارة ورحت أتساءل عن أى الأماكن يمكنها أن تخفى فيه أشياءها، ثم فكرت فى أن غرفة الخزين لم تكن المكان الأنسب، بدليل أننى والخادمة آنى فكرنا فيها، لربما كانت هى أذكى من ذلك.

كان من المحتمل أنها تكون خبأت حقيبتها فى إحدى الغرفتين الخاليتين، أو حتى فى غرفتى الخاصة بى، من مبدأ أن المكان الأكثر ظهورا كثيرا ما

يتم إغفاله. وإن كان لا يبدو شيئا محتملا إلا أنى نهضت وأخذت الكشاف ورحت أفتش فى جميع غرف الطابق العلوى، ولكن دون جدوى.

لم يتبق إلا مكان واحد وهو فى السطوح. لقد اعتاد حيوان البوسوم * أن يتواجد فى سطح منزل كومبارجانا ليستقر به، وذلك عندما كنت صبيا، رغم أن أبى اتخذ كل الإجراءات اللازمة لطرده تماما من السطوح، وبالفعل لم يكن هناك أى أثر له منذ سنوات. لقد صعدت السطوح مرة أو اثنتين بغرض اصطياد البوسوم، منذ خمسة وعشرين عاما تقريبا. كنا نستطيع أن نصطاده بمصيدة من ناحية السطح بجوار غرفة هيلين، التى لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق سلم.

أين رأيت السلم؟! لقد رأيته فى مكان ما، حالا، سلم معدنى خفيف مطلى باللون الأحمر، إنه سلم حريق. لقد تذكرت، إنه معلق على الحائط فى ركن فى ممر غرف الخدم، فوق ثلاث طفايات. مصمم على أن يسمح بالنزول من السطح إلى ممر غرف الخدم ثم إلى حجرة الغسيل فى حالة حدوث أى حريق.

الأمر يستحق إلقاء نظرة، فلربما أستطيع الصعود عليه إلى السطوح لكى ألقى نظرة هناك، لربما أعثر على شىء. فتحت الباب الدوار على آخره، ودخلت مكان غرف الخدم بهدوء آملا ألا تخرج آنى من غرفتها، وأخذت السلم من على الحائط، وحملته إلى المبنى الرئيسى، وأغلقت الباب الدوار خلفى. وضعته فى الممر وفتحت به الباب السرى، ووضعته فى وضع ملائم.

من المؤكد سيكون السطح متسخا، ولازلت أرتدى ملابس السهرة. وعلاوة على أن صعود رجل مثلى معاق إلى السطح سيكون عملا فذا من أعمال الجيمانيزيوم يتطلب جهدا من الذراعين، لقد أديت تمارين كثيرة على مدى سنوات لتقوية الذراعين والصدر كنوع من التعويض. عدت إلى غرفتى، ارتديت بنطلونا، وبلوفر، وأخذت الكشاف وذهبت إلى السطح.

* حيوان يشبه الفأر موطنه أستراليا.

الوصول إلى السطح ليس بالأمر الصعب، ولكن عندما وصلت إليه كان هناك بعض ألواح الخشب مسنودة بشكل غير ثابت على السقف الجبسى، مع عدم وجود أى شىء للتشبث به. ألقيت نظرة حولى، فلم أجد شيئا غير عادى، فبعض تنكات مياه، ومواسير، ومدخنة من الطوب، وبعض الوصلات الكهربائية. ترددت فى الوقوف والزحف على يدىّ وركبتيّ على ألواح الخشب بعيدا عن الباب السحرى والسلم، حتى إننى فى النهاية وجدت ما أبحث عنه.

إنها هناك، مستندة على عارضة خشبية، خلف تنك مياه، بزاوية مع طوب المدخنة، فى مكان معتم دائما. إنها حقيبة صغيرة، جديدة نسبيا، خالية من الغبار والتراب. عليها حرفان بارزان". ج ب". وكانت مغلقة.

كان هناك حبل صغير يتدلى من أحد الألواح، ربما كان من بقايا الأشياء التى كنا نصطاد بها البوسوم، استخدمته فى إنزال الحقيبة من الباب السحرى إلى الممر. أغلقت الباب السحرى، ونزلت بحرص على السلم إلى الممر، وأخذت الحقيبة إلى غرفتى. لقد اتسخت تماما، فغسلت يدى قبل أن أفعل أى شىء آخر. ذهبت ووضعت السلم فى مكانه فى ممر غرف الخدم وعدت إلى غرفتى، ووضعت الحقيبة على طاولة بقرب المدفأة.

كنت أعرف بلا شك مكان المفاتيح. لقد كانت هناك حلقة بها ثلاثة مفاتيح فى شنطتها، ولكن لم أشأ الذهاب إلى غرفتها وإحضار المفاتيح.

لقد كان معى مجموعة من المفاتيح الخاصة بحقائبى الصغيرة، والكبيرة التى ستصل لى عن طريق البحر، فرحت أجرب كل مفتاح على حقيبتها لعل واحدا منها ينفع فى فتحها. ولكن فشلت فلم ينفع أى منها فى فتح الحقيبة، لم يناسبها أى مفتاح.

تشجعت ورحت بقلب جامد أعبر الباب الدوار ذاهبا إلى غرفتها، وفتحت باب الغرفة. لقد كان ما أفعله شيئا دنيئا. فالفتاة كانت فى مشكلة، وهى

الآن ميتة، جثة هامدة ترقد تحت الملاءة فى الغرفة. لقد تحملت آلاماً جمة لكى تحفظ أسرارها، والآن هى ميتة ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها، ولقد اخترقت الآن خصوصيتها، فها أنا أسرق حقيبتها، لكى أكشف أشياء لم تكن تريد أن يعرفها أحد. وقفت بجوار التسريحة لكى أفتح الحقيبة وأنا أتخيل الفتاة مرتعبة وتحتج وهى تحت الملاءة فوق السرير الذى خلفى. فهمست: "أنا آسف يا عزيزتى لأنى أفعل ذلك"، وأخذت المفاتيح، ودفعت بالحقيبة مرة أخرى فى الدرج، ثم خرجت من غرفتها متجها إلى غرفتى من خلال الباب الدوار بأسرع ما يمكن.

لأنه يمكننى الآن أن أفتح حقيبتها، فلم أكن فى عجلة لكى أفعل ذلك. لقد كنت مترددا قليلا ومنزعجا. ولم أكن متأكدا مما إذا كنت أفعل الشىء الصواب أم لا. تركت المفاتيح فوق الشنطة، ونزلت بحرص إلى حجرة الجلوس. كانت الحجرة دافئة، فمازالت الجمرات محمرة فى الموقد. صببت لنفسى كأسا من الويسكى بالصودا لكى أهدئ من أعصابى. دقت الساعة الحادية عشرة، بينما أنا فى حجرة الجلوس.

وقفت أمام المدفأة، والكأس فى يدى، وقد استعدت تماسكى، ولكن مازلت مترددا فى فتح هذه الحقيبة. فمثل هذا الفعل يتنافى تماما مع رغبة الفتاة الميتة، ويجب أن نحترم رغبات الموتى. لربما القانون يطلب منى أن أفعل ذلك، ولكنى أمتلك القوة التى أستطيع بها أن أقول للقانون أذهب إلى الجحيم، فلا أحد يعرف أنى وجدت الحقيبة إلا أنا. لا أعتقد أن هناك أذى لأى فرد لو أنى ألقيت بالحقيبة فى المحرقة الرئيسية، وأكون بذلك قد لبيت رغبة الفتاة.

فى الجانب الآخر، إنى أشعر بالمسئولية عن سعادة ورفاهية كل فرد فى المجتمع الخاص بنا، مادام ذلك فى إمكانى. وفى ذات الوقت هناك شىء ما، خطير، وكارثى، جعل الفتاة تنتحر. ويجب أن أعرف هذا الشىء، فربما يعود

مرة ثانية. فقد يكون هذا الشيء لا يؤثر على جيسى بروكتر وحدها، ربما كان شيئا يجب اقتلاعه من كومبارجانا، فهذا الشيء قد يكون نتيجة شيخوخة أبى وعدم إحكام قبضته على الأمور. ولربما يكون هناك شيء من النوع السادى أو الشاذ فى مزرعتنا. فإن لم أتأكد من هذا الوضع فقد يحدث لشخص آخر، ولربما يكون هناك أشخاص آخرون يعانون مثلما عانت هذه الفتاة.

صار من واجبى أن أفتح هذه الحقيبة لربما أعرف ما هذا الشيء الغامض. لربما استلزم الأمر فحصاً بسيطاً من الطبيب الشرعى، ثم نقوم بحرق كل شيء بعد ذلك، وكلما أسرعنا كان أفضل.

صعدت إلى غرفتى مرة ثانية، ولكن بأعصاب هادئة. ليس هناك ما يدعو إلى التأجيل؛ وأغلقت الباب فى هدوء وأقفلته بالمفتاح. ثم اتخذت طاولة بجوار المدفأة وفتحت فوقها الشنطة.

أوراق كثيرة منظمة بشكل أنيق. خطابات وأوراق بنكية، ومسودات على ورق فلوسكاب فى قاع الحقيبة. أخذت أقلب فى الأوراق التى أعلى، فلفت نظرى جواز سفرها. جذبت الجواز، فذهلت عندما قرأت الاسم الذى على الغلاف، ففتحته، ووجدت صعوبة فى أن أقلب الصفحات، فلقد كانت أصابعى مخدرة. ورحت أحدق فى الصورة الفوتوغرافية، وهى بدورها تحدق فىّ، إنه الوجه العريض الجامد الذى أتذكره جيدا، وبحواجبه الكثيفة.

إنها ليست جيسى بروكتر، بل كانت جانيت برنتيس.

إنها جانيت برنتيس، فتاة البحرية القيادية، التى قابلتها مع بيل عام ١٩٤٤، فى ليمونجوتن، قبل غزو نورماندى.

الفصل الثالث

يجب القيام ببعض الإجراءات المنهجية التى ستوفر علىّ التفكير لبعض دقائق، فبدأت فى تفريغ العقيبة من الأوراق وشرعت فى رصها على هيئة أكوام منتظمة لكى أبدأ فى فحصها بطريقة ممنهجة، وبعد لحظة وقعت عينى على إطار صورة فوتوغرافية، على هيئة محفظة جلدية يمكن نصبها على الطاولة، بها صورتان تحت ورق سيلوفان لامع. فوقفت أتأملها طويلا وهى مفتوحة بين يدىّ. أعرف إحداهما، فهى لبيل أخذها له مصوراتى محترف لامبالى فى بورتسموث، أثناء تدريبه فى البحرية الملكية فى إستنى. كان يرتدى زى الجنود، قبل أن يترقى لرتبة أعلى، كانت الصورة قديمة، وكانت أمى تحتفظ بنسخة من هذه الصورة قائمة على طاولة فى غرفة نومها، بجوار صورة لهيلين وأخرى لى. فتساءلت كيف سيكون شعورها لوعرفت أن الخادمة التى كانت فى منزلها تمتلك نسخة من هذه الصورة؟

كانت الصورة الأخرى أكثر حيوية من الأولى. فهى لقطة سريعة لبيل وهو فى الزى الحربى، أخذت له قبل وفاته مباشرة، وهو واقف فى أرض

أحد المعسكرات. كانت جانيت برنتيس تقف بجواره وهى فى زى البحرية القيادية، كانت ذراعاه تلتفان حول كتفيها، وكانا يضحكان معا.

أعرف أن أمى لم تعرف شيئا عن هذه الفتاة، فلقد أخبرنى بيل بهذا فى ربيع عام ١٩٤٤ . لقد كنت فى تلك الأيام قائدا فى الجيش، بعد رحلتين بالهوريكنز والسبتفير.

كان ذلك منذ مدة طويلة حينما ظهرت فجأة مهمة تستدعى أن أذهب إلى مؤتمر فى ميناء بوليو، فاستأذنت فى أربع وعشرين ساعة آخذها لكى أقابل أخى بيل قبل انطلاق المنطاد. فأخذت إحدى الاسبتفير حوالى الساعة الواحدة مساء من يوم السبت، وهبطت فى الغسق، كان هناك طونى بيترسون ينتظرنى بسيارة، أقلتنى السيارة إلى ليمنجتون، حيث حجزت غرفة فى فندق روبك، وقابلت بيل هناك على العشاء.

تناولنا كأسين قبل الطعام، وأخبرنى بيل بأنه يعرف ميناء بوليو، لقد مر عامان تقريبا منذ أن التقينا، فقد كنت فى مصر والصحراء الغربية قبل مهمتى التى أسندت إلىّ، وعندما تم استدعائى لانجلترا مرة أخرى، كان هو فى التدريب فى الساحل الغربى لاسكتلندا. لقد حدث تغيير كبير لكلينا، حتى إننا استغرقنا وقتا حتى نتواصل مرة أخرى ونتداول المواضيع المشتركة بيننا. وساعدنا مشروب الجن كثيرا على ذلك.

سألته: "ماذا كنت تفعل فى الميناء، ألم تكن تلهو فى الفضاء؟"

فهز رأسه: "بل هناك رقيب للرحلة"، فأومأت برأسى، فميناء بوليو ملىء الآن بالمقاتلين، والمقاتلات الجاهزة للغزو، ولكن قبل ذلك يجب من طلعات الاستطلاع، ويقوم المصورون بالتقاط صور للمواقع. قال بيل: "إنه رقيب ممتاز، ولكن غير مسموح لأحد باصطحاب كاميرا هنا"، لم أكن أعرف ذلك، ولكنها احتياطات ضرورية قبل عملية الغزو، فاستطرد: "إنه يلتقط صورا

لأى فرد مقابل دولار للصورة، لقد أخذت صورة لى أنا وجانيت، سأذهب لأخذها يوم الأربعاء".

كانت هذه النقطة قريبة من الموضوع الذى نريد أن نتحدث فيه. سألته: "أين جانيت الآن؟ هل هى هنا؟، لم أكن قابلتها بالطبع حتى ذلك الوقت.

فهز رأسه: "لا، فقد كان لديها إذن بثلاث ساعات فقط، وعادت فى المعدية إلى ماستودون"، كان يعنى المركبة البحرية التى كانت تبحر إلى إكسبرى هال فى نهر بوليو، فاستأنف: "ستأخذ الغد كله إجازة كاملة".

– هل لديها ما يحضرها؟

فقال: لديها قارب صغير، متى ستعود؟

فأجبته: "سيكون مناسبا لو أنى غادرت فجر يوم الاثنين، فلدى لقاء مع الأمريكان غدا، يجب أن أكون فى الميناء الساعة السادسة. يجب أن أذهب لكى اتصل بالقيادة، لن يستغرق ذلك أكثر من نصف ساعة، وسأكون بعد ذلك حرا، حتى الساعة السادسة".

- يمكنك أن تتصل من هنا.

- لا، لابد أن أستخدم خطا معينا، لن أتأخر، ستأتى مركبة لتأخذنى فى الساعة الثامنة والنصف.

فنظر إلىّ وابتسم قائلا: "مع كل هذه التليفونات لا بد أنهم يضعون تحت أمرك وسيلة جاهزة".

فقلت له بعد أن طلبت كأسين أخريين: "سألتنى ماما فى آخر خطاب إذا كنت ستكون فى مهمة عسكرية، أم لا".

- ليس كثيرا، لدى وقت من الفراغ، ولست ضابطا، وإلا ما كنت قابلت جانيت.

فقلت: "لا تصدق، معظم الضباط لا يسندون مهاماً عسكرية للنساء اللاتى يحطن بهم، إنهم يحجزونهن لمهام أكبر من ضابط مساعد".

فقال: "يحجزون البعض لمهام عملية".

فنظرت إليه قائلا: ماذا هى تعمل؟

- فى صيانة المعدات، فى بحرية مادستون النسائية، مسئولة عن صيانة مدفعية نهر بوليو.

رحت أنظر من حولى، فالكلام غير مسئول، وقد يكون هناك بعض المتلصصين يسترقون السمع، ولما تأكدت ألا يوجد أحد يسمعنا قلت: صيانة مدفعية؟

فأومأ: "إذا بلغت أى سفينة عن عطل فى أى قطعة ذهبت إليها وفحصت العطل، فإن تعذر إصلاحه هناك، جاءت بها للميناء واستبدلت بها أخرى".

فرفعت حاجبى متعجبا: "ولكن كل الفتيات اللاتى قابلتهن يعملن فى غرف الخدمات أو الرادار".

فابتسم بيل: "إنها تعرف ما تعمل بشكل جيد".

- هل أنتما مخطوبان؟"

فقال بتأمل: "لا، لا شىء من هذا القبيل". ثم راح ينقر الكأس بأصابعه مردفا". ليس قبل أن يتم البالون مهمته، وسيكون لدى الوقت لكى أفكر مليا فى الموضوع".

- هل ترغب فى أن تخطبها؟

فأومأ: نعم، إنها فتاة بهية.

- وكيف تعتقد ستكون علاقتها مع والديك؟، لأننا فى لامنجتون، فى هامبشير، فى القوات البريطانية، بعيدون جدا فى المسافة والتفكير عن كومبارجانا، فى الحى الغربى

- ستكون على علاقة طيبة معهما.

- هل هى تعرف كل شىء عن أستراليا؟

فابتسم: "لا شيء، غير أنى قلت لها إننا مزارعون، فليس من الصواب شرح التفاصيل الآن".

فأومأت، إذ إننى مررت بالموقف نفسه، عندما لازلت حديث العهد فى إنجلترا وحاولت أن أشرح لهم كيف نعيش فى أستراليا، واكتشفت أنهم يعتقدون أنى أتفاخر وأتباهى. ومنذ ذلك الوقت التزمت الصمت، واكتفيت بتعريف نفسى أنى ابن مزارع، الأمر الذى كان حقيقة أيضا.

فسألته: "ألديك فكرة عما ستفعل بعد أن ينتهى ذلك؟

- ينتهى ذلك؟ تعنى عملية أوفرلورد؟، أخفض صوته عند ذكر الكلمة الأخيرة.

- لا، أعنى الحرب.

- متى سيكون ذلك؟

- من المحتمل هذا الخريف، لا أعتقد أنها ستستمر أكثر من ذلك.

- هل هذا ما يقولونه فى المكان الذى أنت فيه؟

فأومأت بالإيجاب، فلا أحد منا يصدق ذلك، ولا بعد خمس سنوات. سألته: "هل ستعود إلى سايرسيستر؟"، وكان بيل جاء إلى انجلترا فى يوليو عام ١٩٣٩، عندما كان عمره حينئذ ١٩ عاما، وكان الهدف هو الذهاب إلى كلية الزراعة. فمكث هناك مكرها، أثناء الحرب الزائفة، حتى تم تجنيده فى البحرية.

فهز رأسه: لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى فى الوقت الحالى، وماذا عنك؟

فقلت، وكنت قد درست القانون لمدة عامين فى إكسفورد: "لا أفكر فى استئناف الدراسة لمدة، حتى انتهى مما أنا فيه".

- هل ستذهب لترى الأسرة قبل أن تنجز ذلك؟

ـ أظن ذلك، سأذهب لمدة شهر أو اثنين،، ثم أعود لاستكمال الدراسة فى إكسفورد.

فوضع بيل كأسه فوق البار قائلا: "أنا لا أريد أن أفعل ذلك، أريد أن أتزوج من جانيت واذهب بعد ذلك إلى كومبارجانا، وأقيم هناك لأرعى الماشية".

فنظرت إليه: أتريد ذلك فعلا؟

ـ بعض الشىء، لقد كان من الضفادع البشرية فى ذلك الوقت، ولم أكن على دراية كاملة بما يفعل، رغم أنى أعرف أنه يذهب باستمرار إلى شواطئ فرنسا الشمالية فى ظلام الليل، ليمسح الشواطئ من الألغام التى كان يضعها الألمان. لقد رأيت الصور الفوتوغرافية التى كان يلتقطها الطيارون، وكنت أعرف أن مهمة بيل هى الغوص تحت الماء حتى يصل الشاطئ ويقوم بمهمته تحت مسمع ومرأى الألمان ويقدم بها تقريرا. أحسست أنه يشعر بالإجهاد، ولكن ليس فى مقدورى أن أفعل شيئا، فأنا أيضا أشعر بالإجهاد.

فقلت: "يجب أن يذهب أحدنا إلى العزبة بأقصى سرعة، فهيلين تقول إن الأرانب الجبلية مرعبة".. لكون أبى فى المقاطعة الشمالية حيث يؤدى الخدمة، كانت أمى تقوم بإدارة المزارع، وهيلين كانت تساعدها اسميا، فهى فى الحقيقة تقضى معظم وقتها فى ميلبورن، فى الصليب الأحمر. كانت أمى تقوم بعمل جيد، ولكن مع نصف الرجال فى الحرب، سيأتى يوم على المزارع لتسوء جدا.

فنظر إلىّ: ألا تنوى أن تذهب أنت؟

فهززت رأسى: "لا، بل اذهب أنت، تزوج الفتاة واذهب، عد وساعد أبانا فى إعادة كيان المزارع، فأنا لو ذهبت، لن أستمر"، لقد كنت أعرف ما يدور

فى خلده، إننى الأخ الأكبر، فاستأنفت: "لو أنى عدت، سيكون العمل كبيرا ويحتاج اثنين".

فأومأ: "وإذا لم أذهب سنحتاج لمن يقوم بالعمل فيها، فالأراضى شاسعة وأكبر من أن تكون مزرعة فى هذه الآونة".

- ربما، ولكن اذهب أنت، وخذ معك جانيت، فاجئها.

فضحك: "هى بالفعل منبهرة، فالمزرعة هنا تعنى مائة فدان".

فسألته بفضول: "من هى بالضبط يا بيل، ما خلفيتها الاجتماعية".

فقال: "طبقة متوسطة، لا شعبية، ولا أرستقراطية. ربما تعرف أباها فهو يعمل مدرسا فى جامعة إكسفورد".

- الأستاذ برنتيس؟ أو الدكتور برنتيس، الاسم مألوف.

- أعتقد ذلك، أتعرفه؟

فهززت رأسى: "لا، فهم كثير هناك، ألا تعرف فى أية كلية هو؟

- هل هناك واحدة باسم ويكهام، أو شىء مشابه؟

فأومأت: "نعم، أهو فى ويكهام؟

- أظن ذلك.

- أتعرف المادة التى يدرسها؟

فابتسم: "علم الدلالة، لقد درست هذه المادة".

- يا إلهى، أتعرف ما تعنيه؟

فقال بيل: "حسنا، ولكن لا تعنى يهود، فجانيت ليست كذلك، وأظن أنها شىء يخص الكلام".

فأومأت، إننى لم أحسب أن هناك مادة عن الدلالة فى الجامعة، لربما يكون موضوع بحث. قد يكون أستاذا للغات المعاصرة، أو شيئا فى الأدب، أيا كان، فهو أستاذ فى الجامعة، وعلى أية حال فهى خلفية جيدة لفتاة، يساعدها أن تأخذ مكانتها فى المجتمع النسوى فى الحى الغربى.

سألنى بيل: "أتعرفه؟

- لا أظن، كيف يبدو شكله؟"

- لا أدرى، لم أقابله قط، أو أى شخص من العائلة، ربما أقوم بذلك بعد انتهاء عملية البالون.

إن حياتنا تتوقف على عملية أوفرلورد، ولكن كل شىء لا يزال مجهولا. ولا أحسبها اقتربت، فمن المعروف أن تكون هناك تكثيفات من الفرق والمعدات قبل العملية بأسبوع أو اثنين، ولم يتم فعل أى شىء من هذا. ولا أعتقد أنها بعيدة، فالأرض تصلب بعد أمطار الشتاء، والدبابات تستطيع أن تتحرك فى هذه الآونة، أو بعد فترة وجيزة. لا أحد فى القيادة يعرف التاريخ بالضبط، ولكنى من خلال المعلومات التى تمر من مكتبى أستطيع أن أخمن إنها فى غضون ستة أسابيع من الآن، وإن كنت لم أخبر أحدا بذلك، ولا حتى بيل.

مرت فى ذهنى صورة لرجل عريض المنكبين، عريض الوجه، فى حوالى الخامسة والخمسين أو الستين من عمره، ذى وجه صلب وجامد، وحواجب كثيفة، وشعر فضى اللون. ظننت أنه الدكتور برنتيس، ولكن لم أكن متأكدا، ولا متأكدا أيضا فى أى مكان قابلته أو متى، على أية حال هذا لا يهم الآن.

ذهبنا إلى غرفة الطعام لتناول العشاء، كانت الوجبة فى غاية البساطة، كنوعية الوجبات فى ذلك الوقت، وتناولنا بعد ذلك بيرة. لم تكن غلطة الفندق أن الوجبات بسيطة، فلقد تم استدعاء معظم العاملين للخدمة العسكرية. ولكن عندما جاء طبق الحلو، قلت لبيل: "أتمنى أن تكون جانيت قادرة على الطبخ".

فقال: "لا أظن ذلك، ولا أعتقد أنها طبخت فى حياتها".

- كم عمرها؟

فأجاب: "لقد التحقت بالبحرية النسوية بعد تخرجها من المدرسة مباشرة، عام ١٩٤١، كان عمرها حينئذ ١٨ سنة، أعتقد الآن عمرها ٢١ سنة". ثم مرت لحظة صمت، واستطرد". ولكنها تبدو أكبر من سنها، من الطريقة التى تتعامل بها مع الجنديات، إنهم يخشونها جدا فى معسكرها".

فابتسمت: "يخشونها".

- أوه، يجب أن تراها وهى تصعد على المركبة، و تشهد مدى الرعب على وجوههن، ولاسيما إذا وجدت بندقية ما صدئة، إنهن يفزعن منها أكثر من القيادة؟

- أكيد شهرتها تسبقها.

- أعتقد ذلك، فهى البحرية الوحيدة التى كرمها القائد الأعلى.

أخذت أحملق، وقد عدت إلى غرفتى فى كومبارجانا، والنار فى المدفأة قد خمدت. وضعت برواز الصورة على المنضدة، وذهبت للنار وذكيتها بقطعتين من الحطب. لم أعد لفحص الحقيبة، فهناك متسع من الوقت. هناك ذكريات جمة عن بيل وجانيت برنتيس.

لقد حدثتنى مای سبنكس، وفيولا داوسن، وضابط الصف واترز عن جانيت برنتيس، وحياتها فى البحرية، وذلك عندما قابلتهن بعد الحرب، عام ١٩٥٠، وعام ١٩٥١ . لقد انقطع اتصالها بهم تماما، لذلك لم يكن عنصرا مساعدا لى فى إيجادها، ولكنهم رسموا صورة لها كالتى رأيتها عليها مع بيل فى يوم أحد صاف من أيام أبريل قبل عملية أوفرلورد، عندما أخذنا قاربا عبر النهر لنتنزه فى ساند سبيت، قرب هيرست كاسل.

لقد ولدت فى كريك رود، فى نورث إكسفورد، لقد ذهبت هناك ووجدت البيت الكبير القديم عام ١٩٤٨، عندما ذهبت إلى إكسفورد لاستكمال دراسة القانون. لقد تحول بيتها القديم ومعظم بيوت المنطقة إلى شقق، ولم تتذكر برنتيس إلا سيدة عجوز واحدة فى رود. لها أخت أكبر منها بعدة

سنوات تزوجت عام ١٩٤٨، وانتقلت إلى سنغافورة، ولكنى لم أعرف بتاتا اسمها بعد الزواج. ليس لها إخوة. لقد عاشت طفولتها فى جو أكاديمى هادىء فى إكسفورد، ما بين أشجار الأبنوس، والماغنوليا وأزهار اللوز، والحديث عن العائلات الأدبية. ظلت هكذا حتى أن أخذت شهادتها الدراسية عام ١٩٣٩، وقد بدأت الحرب.

وكما أخبرت هى فيولا دايسون: "ووصل كل شىء إلى نهايته، فقد كنت ذاهبة إلى ليدى مارجريت هال عام ١٩٤١، ولكن الحرب أتت على ذلك. لقد كنت محظوظة لأنى التحقت بالبحرية النسوية، فما كنت سأحب الجيش أو المصنع، فإما البحرية النسوية أو أكسفورد".

ولربما الحرب أفسدت عليها السنة الأخيرة فى الدراسة. فقد ماتت الحياة الأكاديمية فى أكسفورد إذ تبعت الحرب الزائفة الحرب الحقيقية. لقد التحق والدها بالمراقبة، وكان يقضى معظم ساعات الليل وعلى رأسه السماعة، وهو يراقب ويرسل المعلومات عن الطائرات إلى غرفة العمليات، على بعد خمسين ميلا. وبالنسبة لرجل فى الستين، فعمل الليل لا يتيح له إلا العمل الروتينى، بالتالى فقد نحى العمل البحثى جانبا، ولم يعد قادرا إلا على إلقاء المحاضرات لمجموعات صغيرة من الطلبة والجنود الذين يريدون أن يحسنوا لغتهم.

كان منزلها فى السنة الأخيرة من دراستها مكتظا بالمترحلين، هؤلاء الغرباء المزعجين الذين يكونون فى الوقت الذى تريدهم بعيدا، دائما يتكلمون فى الوقت الذى تريد أن تبقى فى صمت. لقد ارتبكت حياتها التعليمية، فالمدارس الليلية لا يمكن التفكير فيها فى وقت الحرب. وكانت تقضى معظم وقت فراغها فى المستودع الذى تم إنشاؤه لإرسال المؤن للصليب الأحمر. لم تكن أكسفورد ممتعة فى ذلك الوقت.

لقد شعرت بالراحة عندما التحقت بالبحرية النسائية، لقد كانت فتاة عريضة المنكبين، عمرها ثمانى عشرة سنة ونصف السنة، ومازالت تشعر بالخجل. كانت تشعر بالراحة والتعاسة فى نفس الوقت، فالأيام الأولى فى التدريب وتنظيم المستودع كانت أياما صعبة. لقد حاولت أن تثبت أنها اجتماعية عندما التحقت بالخدمة، ولكنها منذ أن التحقت لم تختلط بأحد. فهى لم تشارك سرير نومها مع أحد منذ الطفولة، والآن اضطرت أن تنام فى الجزء العلوى من سرير فى عنبر يجمع أكثر من ثلاثين فتاة من طبقات مختلفة. وخضعت لفحص دقيق شخصى، أبسط ما فيه الكشف فى رأسها وملابسها الداخلية عن القمل. وكان عليها أن تتعلم اللغة الخاصة، فالخروج من بوابة المستودع للذهاب للسينما المحلية هو". أذهب للشط".. وبختها بشدة فى ثالث يوم لها ضابط الصف لأنها أشارت لمطبخ السفينة على أنه مطعم، ولكن سرعان ما تعلمت أن وضع اللحاف على السرير والهلب مقلوب يعنى غرق السفينة.

بعد مرور أسبوعين من التدريب كانت الأمور معها مستقرة؛ فخشونة حياة الخدمة أصبحت معتادة عليها، وعندها بدأت تتطوع للعمل الخاص. لم تكن طامحة فى أن تكون طباخة أو مضيفة، كانت جيدة فى الأدب، الذى لم يكن أحد يريده، ولكنها تجهل الاختزال، والكتابة على الآلة الكاتبة وإمساك الدفاتر. كانت تحب أن تصبح أحد أفراد طاقم فى سفينة ولكن المنافسة كانت صعبة ولم يكن لديها إلا قليل من المعرفة عن السفن فى ذلك الوقت. كانت تظهر اهتماما غير متوقع بالأعمال الميكانيكية، فكانت تحب أن تزيّت دراجتها، وسمكرة آلات الحش، واستبدال كابلات الكهرباء الخاصة باللمبات، وبناء على هذه الاهتمامات اختارت الأسطول البحرى، ولأنها برعت فى إطلاق الرصاص دون خوف صارت بحرية نسوية فى إعداد الذخيرة.

أرسلت إلى مستودع الذخيرة، حيث كانت تفك، وتنظف وتفحص البنادق، وتزود الطائرات بالأحزمة، وقد برعت فى ذلك، ثم ترقت حتى أصبحت تعمل فى المدافع. لقد اكتمل تعليمها، وتم إرسالها مع مجموعة من البحريات من مستودع الذخيرة إلى فورد قرب ليتل هامبتون فى الساحل الجنوبى لإنجلترا، حيث راحت تمارس تجارتها من ديسمبر١٩٤١ حتى يونيو١٩٤٣ .

لقد قضت فى ميناء فورد الثمانية عشر شهرا التى شكلت كيانها. لقد ذهبت هناك قليلة الخبرة، غضة، غير واثقة من نفسها، هيابة ومترددة. وتركتها قائدة فى البحرية، لا تطمح إلى أكثر من ذلك، يعتمد عليها، كفاءة، قادرة على أن تعتنى بنفسها، تركتها امرأة ناضجة.

ولقد أصبحت أيضا امرأة جذابة، وحبوبة. لم تطمح إلى أن تكون فى جمال نجمة سينمائية، ولكنها كانت منبسطة، وفتاة نشطة، وتمتلك حس الدعابة. كانت تبدو أفضل فى الأفرول والبنطلون الواسع من ملابس السهرة عارية الظهر، عادة ما تظهر والشحم يلطخ وجهها، بعد أن رفعت خصلات شعرها إلى الخلف، أكثر مما تظهر وعلى وجهها مستحضرات تجميل. كان الطيارون الذين يتعاملون معها يحبونها ويثقون فى الأسلحة التى تقدمها لهم، فكانوا يأخذونها من وقت لآخر لكى تطلق النار من مقصورة الطيار. لقد كانت بارعة فى البندقية الأوتوماتيك. من الناحية البدنية، كانت عريضة الكتفين، وقوية العضلات جراء جر كثير من المعدات وأوعية الذخيرة.

كانت تمثل كل شىء لجميع الرجال، وقضت معظم حياتها هكذا، فعدد الرجال كان يفوق عدد النساء فى فورد بنسبة أربعة إلى واحدة. كانت هناك حفلة ترفيهية كل ليلة أو عرض سينما فى ليتل هامبتون. كانت تتحدث بلغة مفهومة لكل ضابط ثان متخرج أو لهؤلاء المجندين من أدنى الطبقات فى

ليفربول. كانت أحيانا تعبر عن الجنس بكلمات انجليزية قديمة، التى كانت تصدم أبويها، لقد كانت تختار اللغة المناسبة لكل موقف.

لقد شكلتها الحرب وكونت شخصيتها. عندما جاءت لأول مرة إلى فورد، كان قاذفو القنابل الألمان يقصفون الميناء بين الفينة والأخرى أثناء الليل، فكانت تقضى وقتا طويلا مرعوبة فى المخبأ. تعلمت كيف يموت الرجل أو الفتاة، وكيف تتحطم الطائرة، وكيف يبدو الرجل ضعيفا وهشا بعدما تتحطم به الطائرة. عندما شاهدت ذلك أول مرة ودت لو أنها تتقيأ، ثم لتبكى، ولكنها خشيت أن يضحكوا عليها، ثم بعد عدة مرات اعتادت على ذلك، بل وكانت تساعد معهم فى تنظيف المكان من المخلفات.

كانت تذهب إلى إكسفورد بين الحين والآخر، لقد صارت تقلق أكثر وأكثر على والديها، فالحرب كانت تقصف بهما أكثر مما تقصف بها هى نفسها. كانت مسرورة، وبصحة جيدة ومقتنعة بأنها تؤدى عملا جديرا بالاهتمام، كانت ترتدى أفضل ما لديها، وتزين نفسها جيدا عندما تذهب إلى منزلها لكى تترك أثرا طيبا. وجدت أمها تعبة ومرهقة من كثرة العمل فى الطبخ والاعتناء بعدد من الأفراد وليس لديها إلا مؤن بسيطة مع وجود ستة أفراد من أقصى شرق لندن جاءوا ليقطنوا فى ذات المنزل. أما أبوها فيبدو أضأل وأكثر شيبا مما هو فى ذاكرتها، فلم يعد ذلك المدرس المبتهج، الذى يأخذ الحياة ببساطة، بأسلوبه اللبق وسلوكه الرشيق فى غرفة كبار الأساتذة. كان يتحدث بلباقة عن السلك الدبلوماسى المراقب، وسياسته، وإدارته وكفاءته. قبل مرور عام لوجودها فى فورد كانت جانيت تتطلع إلى إذن لاحق بسبب معقول، فلقد كان من المحزن أن ترى أمها مرهقة بهذا الشكل وهى لا تستطيع أن تساعدها، وأن ترى أباها رجلا آخر؛ عجوزا لاحيلة له.

سنحت لها الفرصة فى بداية صيف ١٩٤٣ أن تغير وظيفتها. أخبرنى بذلك واترز رئيس ضباط الصف عندما قابلته فى محله، بيع التبغ، فى

فراتون رود، فى بورتسماوث، عام ١٩٥١ . لقد تذكر البحرية برنتيس جيدا، إذ إنها كانت محور إحدى قصصه التى يرويها دائما؛ لقد قال لى: "حدث فى صيف ١٩٤٣، يا إلهى، لقد كان شيئا ظريفا"، ثم ابتسم وهو يستلذ بما يتذكره، واستطرد". لقد احتاجوا لبحريات متخصصات فى الذخيرة لكى يعتنين بالأسلحة التى فى الطرابيد المقاتلة، وأرسلوا إعلانا لجميع مستودعات الذخيرة طلبا لبحريات متطوعات. لم تدر الفتيات ما هو العمل السرى المسند إليهن، فقد اعتقدن أن المطلوب هو العمل على نوع من المدافع، ولكن اتضح أنه على المركبات والطائرات، ومدافع مضادة للطائرات.

لم تكن تلك المدافع مختلفة عن التى تعمل عليها جانيت، لذلك لم يكن العمل صعبا عليها. وشعرت بأنها تغير وجها من وجوه العمل فى البحرية، ورأت أنه من السخف أن تعمل فى البحرية لمدة عامين، ولا تعمل فى سفينة فعلية. تطوعت مع حوالى ست بحريات للعمل فى هذا الجانب الجديد، على مدافع مضادة للطائرات، وأرسلن للتدريب فى ويل أيلاند.

تقع ويل أيلاند فى بورت سمواث، وهى عبارة عن مكان يتسم بالجدية، مكتظ بضباط البحرية بأردية السيقان السوداء، والتقطيبات الصارمة على الجبين. الكل يعمل باجتهاد لابتكار نوع جديد من القذف بالمدافع، أو بتحسين نوع قديم.

مضى على وجود جانيت برنتيس فى ويل أيلاند عشرة أيام، وكان من برنامجها تدريب يومين بعد الظهر رماية على أهداف متعلقة بالطائرات، وكان يتم هذا التدريب على أهداف فى البحر. كان على الفتيات أن يجربن المدافع التى قمن بإصلاحها .

فى أول يوم تدريب لهن، عندما جاء دور جانيت وصوبت نحو الهدف، تناثر الهدف لعدة أشرطة، ولكنها استطاعت أن تصيبها كلها وتسقطها فى البحر. قد أخبرنى بذلك ضابط الصف، بعد سنوات، وهو متكئ على حافة

محل التبغ، وأضاف". قد يكون هناك بارع فى الرماية بطبيعته، ولكن أن تجد ذلك فى فتاة، فربما يكون أمرا غريبا، لقد أعطيتها كما من جوز الهند على إنجازها، فكثيرا ما كانت تأتينى كميات من جوز الهند من غرب أفريقيا والهند".

بعد يومين أخذن إلى معسكر التدريب حيث يؤدين الرماية الأخيرة، والذى تزامن مع عرض جديد للبحرية فى أهداف أكثر سرعة من السابقة.

كان طاقم البحرية فى ذلك الوقت منقسما إلى مدرستين فى التفكير من حيث التصويب على أهداف الطائرات المنخفضة؛ فمدير المعدات البحرية يرى أن التصويب يكون مرتبطا بمؤشر، أما مدير المدفعية يرى أن التصويب يجب أن يكون مرتبطا بالرادار. كانت المعركة بين الفريقين فى ذلك الوقت أشد من المعركة ضد الألمان. وإن اتفق الفريقان على أن التصويب المباشر لا ينفع فى هذه الحالة.

أراد كل من القيادة الأولى للبحرية والخامسة مشاهدة تجربة حية للتصويب الفعلى فى البحر، لذا حضر مجموعة من القيادات لذلك الأمر.

كان قائد المجموعة قى ذلك الوقت هو الضابط كارترايت، الذى دمرت سفينته فى نورث أتلانتك بواسطة غواصتين ألمانيتين فى الوقت نفسه، بينما كان مشغولا بمهاجمة ثالثة فى أعماق البحر. إن غطسه فى الماء لمدة ساعتين فى الشتاء، ثم بقاءه لمدة ست وثلاثين ساعة على سطح قارب، كان له تأثير سيء على صحته.

بعد فترة النقاهة أحيل للعمل فى الميناء لمدة ستة أشهر، ثم أرسل ليتولى مهمة التصويب.

كان القائد كارترايت ضابطا للمهام العامة، حيث كان يقود سفينته بمعدات قليلة من المدفعية، إذ كان يرى أن السلاح البسيط أفضل من

السلاح المعقد. كان من بين مهامه التجارب الحية والتدريبية للرماية. وكان يهتم أكثر بالتدريبية، لذلك كان مجيء قيادات للمشاهدة نوعا من تضييع الوقت. ذلك يعنى أنه يوقف التدريب، ويجعل مئات من الفتيات البحريات يقفن لساعة أو أكثر حتى تنتهى المهمة.

قال لمساعده منفسا ما فى نفسه: "نصفهم لن يقوم بالتصويب إن لم نتدخل، لا، لن أسمح بذلك، لا بد أن يقوم كل واحد منهم ولو بالتصويب مرة واحدة. أيظن أولئك أن التدريب ليس له أهمية؟"

عندما وصل القادة، كان هو فى كامل هيئته الصارمة، والغضب فى داخله. ثم ظهرت الطائرة فى الوقت المحدد، وخلفها الهدف المجنح المتناثر فى السماء. كانت تلك أول مرة يشاهد فيها القادة هذا الهدف، ولا أحد يعلم مدى حجمه أو سرعته. تفحصه الضباط التقنيون بدقة. همس الجنود الذين يفضلون التحكم بالمؤشر لقائدهم بأنه كان من الضرورى معرفة أكثر بالحجم، بينما همس الذين يفضلون الرادار بأن الهدف لا ينعكس بوضوح على شاشة الرادار.

وصلت هذه الملاحظات لقائد الإدارة الأولى فوعد بمناقشة الأمر مع الفنيين بعد تناول الشاى.

استمرت الرماية لمدة ساعة، وتم التصويب من زوايا مختلفة، من قبل الفريقين، المؤشر والرادار، وصوبوا نحوه وابلا من الطلقات، ولكن بعد الساعة كان الهدف لا يزال مرفرفا فى السماء، وكان نصف الضباط يضحك بسخرية، والنصف الآخر أصيب بالخرس التام.

كان الكابتن كارترايت غاضبا جدا، وكانت أفراد تدريبه يقفن بلا حراك وهن يضحكن من كل تصويبة فاشلة، وكانت روحهن المعنوية منخفضة جدا. فقد فقدن الثقة فى إصابة أى هدف فى طائرة بعد أن فشل هؤلاء الخبراء

فى ذلك. لم يكن من المحتمل أن يشاهدن عرضا مثل ذلك يسبب لهن الإحباط.

اقترب منه مساعده، الذى لديه عشر سنوات خبرة فى المجال، خفية وهمس له: "عندنا فتاة بحرية تستطيع أن تصيب هذا الهدف - إنها فتاة موهوبة، تلك التى أصابت الهدف السابق".

فالتمعت عيناه: "تعتقد أنها تستطيع؟"

- أظن ذلك، يا افندم، أليس هذا الارتفاع حوالى مائة وثمانين عقدة؟

- نعم، تقريبا.

- إذن تستطيع يا افندم، سلهم هل لفتاة فى التدريب أن تحاول، ودع الباقى علىّ".

صعد الكابتن كارترايت إلى برج المراقبة، ولفت نظر القائد، وحياه، ثم قال: "لدينا بعض الفتيات فى التدريب يا افندم، تنتظرن دورهن، هل نعطى لهن الفرصة للمحاولة؟

فقال القائد: "فكرة جيدة، وسنستمتع بالمقارنة أيضا"، وكذلك قال قائد البحرية للفرقة الأولى: "لا يزال لدينا وقت كاف".

فنادى المساعد البحرية جانيت برنتيس، وقال لها: "استعدى، وحاولى كما فعلت فى التدريب السابق"، فأخذت مكانها وهيئت نفسها فى المدفع، واستطرد المساعد: "استعدى حتى تسمعى كلمة: اضرب".

فابتسمت: "تمام يا افندم".

من أعلى برج المراقبة حيث يجتمع كبار القادة نظر نائب القائد إلى التصويب قائلا: "ما هذا، فتاة بحرية؟

فقال الكابتن كارترايت: "إنها من التصويب المجرد، فتاة صيانة المدفعية، فتاة، النساء أولا".

كانت جانيت تتحرك فى خطوات محسوبة لتركز على التصويب، لم يكن الأمر صعبا بالنسبة لها، فهو يبدو مألوفا. كان بجوارها القائد يهمس لها: "ركزى، وتذكرى ما قلت لك".. فأخذت تضع الهدف نصب عينيها حتى سمعت كلمة: اضرب".

ضغطت فإذا بالبندقية تهتز بشكل كبير، ودوت دويا هائلا، وانتشر دخان المواد المتفجرة من حولها، فمالت بجسدها لكى تحافظ على التوازن، فى الوقت الذى تماسكت فيه لتسيطر على الموقف.

كانت مبتهجة، إنها فعلا ممتعة!

فجأة ظهر وميضان، أحدهما فى جسم الهدف، والثانى فى الجناح، فأخذ الهدف يلوح فى الفضاء، متساقطا إلى أسفل، فهتف القائد: "أوقفى الضرب".

رفعت أصابعها فتوقف الدوىّ، ووقفت تنظر من خلال الدخان. وراحت الطائرة الشراعية تتهاوى بعنف فى الهواء، وسقط الهدف مدويا فى مياه البحر.

راح الجميع يهلل ابتهاجا، ويحيطونها، وهى ترتعش فرحة، وكأنها لا تزال تطلق الذخيرة. أخرج القائد مزيدا من جوز الهند وأعطاه لها، فأخذته وهى تضحك.

وقال القائد فى برج المراقبة للكابتن فى حدة: "يجب إعادة النظر فى الطرق القديمة".

فقال الكابتن: "بالتأكيد، ولكن ربما تكون استثناء، فقد تكون معتادة فى المدنية على ذلك، أو أنها مدرسة حساب مثلثات".

وأبدى كبير القادة سروره لهذا الإنجاز، وكذلك قائد الفرقة الخامسة: "ماذا؟ أفتاة تصيب الهدف إنه ليوم مشهود".

فقال شخص ما بمقت: "ربما كانت قناصة فى الحياة المدنية يا افندم".

فقال قائد الفرقة الخامسة: "حسنا، دعنا نعرف ذلك، استدعوها هنا للحظة".

ذهب أحد الضباط ليحضر الكابتن واترز والفتاة البحرية، جانيت برنتيس، التى دست جوزالهند فى يد مای سبينكز، وراحت تعدل من زيها، وصعدت إلى البرج. فمرت سريعا على الكابتن كارترايت، ومنه إلى القائد الأعلى، ثم إلى قائد الفرقة الأولى. نظرت إليه فى توتر. فلا تزال ترتجف من إثر إطلاق الذخيرة.

فقال لها بتلطف: "كان تصويبا جيدا، أهنئك عليه. هل مارست الرماية من قبل أن تلتحقى بالخدمة؟"

فقالت: "لقد صوبت مرتين قبل ذلك".

- هل قمت بالتصويب بكثرة منذ أن التحقت بالخدمة؟

فترددت، حيث إن فورد ضد أى لوائح تنظم الطيران للفتيات، ولكنها قررت أن تقول الحقيقة: "لقد كنت فى الجيش البحرى الطوربيدى قبل مجيئى إلى هنا، فكانوا يأخذوننا أحياناً لإطلاق النار".

- على ماذا كنت تطلقين النار، على أهداف فى البحر؟

- نعم، أهداف خشبية أو ما شابه".

كان كل الضباط يتفحصونها بينما قال القائد: "ماذا تعملين فى الحياة المدنية؟

فقالت بتردد: "لم أكن شيئا، أعنى أنى كنت فى المدرسة".

فقال القائد الأعلى: "أى المواد كانت أفضل، فى المدرسة؟

فقالت: لقد كنت أحب اللاتينية"، ولقد بدا السؤال غريبا بالنسبة لها، فقد كان بعض الضباط يتضاحكون.

فسألها رئيس الفرقة الأولى: "هل واجهت أى صعوبات فى تعليم الرمى المجرد؟

ـ لا، يا افندم"، لقد كانت موهوبة، حتى إن جميع زميلاتها فى القسم كن يعجبن منها، واستطردت: "كنت أفعل ما يطلبه منى المدرب بالضبط".

فتوجه القائد إلى المدرب: "هل هى استثناء؟"

فأجاب بصلابة: "إنها أفضل من المستوى العام، أستطيع القول إنها رامية بالفطرة".

ـ ذلك ما جعلك تختارها للتصويب؟

ـ نعم يا افندم".

سأل ضابط آخر: كيف تبدو فتيات البحرية، بالمقارنة للجنود الآخرين، على وجه العموم؟

ـ أفضل، لا شك فى ذلك، فهن أكثر تعليما، من هؤلاء المجندين الآن.

فقال قائد الفرقة الأولى: "حسنا، أهنئك على هذه الرماية يا أيها المدرب"، فابتسم ضابط الصف بسرور، محتفظا بهذه الكلمات فى ذاكرته القوية لكى يقولها لى بعد ثمانية أعوام.

فانصرفت جانيت والمدرب وذهبا إلى حيث مكانهما، واستدعى المدرب الفرقة مخاطبا: "انتباه، أيتها الفرقة البحرية، لقد هنأنى القائد على أداء الزميلة البحرية، والآن أنتن تعرفن ما قيمة التصويب المجرد، فإذا لم تكن على قدر المسئولية فستذهبن لمهمة أخرى، ألا وهى المطبخ!، فابذلن ما فى وسعكن. استرح".

فانحنين جميعا أمام جانيت: "هل رأيت القائد الأعلى، أتكلمت معه، ماذا قال لك؟

فقالت: "رأيتـــه، وسألنى عم كنت أفـعل من قبل، فقلت لـــه، لا شىء، ثم سألنى قائد الفـــرقة عن أى المواد كانت أفضل بالنسبة لى، وأجبتهم.

إذا سألتنني عنهم، كلهم معاتيه كالأرانب البرية، ولذلك لم يصيبوا الهدف".

أعرف أنها قالت ذلك، فماى سبينكز أخبرتنى بكل ما دار فى ذلك اليوم عندما قابلتها بعد ذلك، بعد أن تزوجت وصار لديها طفل عمره سنتان، وآخر مازال رضيعا عمره ستة أشهر. كان زوجها موظفا فى البلدية، وكان فى العمل حينما قابلتها عام ١٩٥٠ . لقد أخبرتنى عنها فيولا، فذهبت إليها لأنى اعتقدت أنها لا تزال على علاقة بجانيت برنتيس، أو على الأقل تعرف ما حدث لها. لكنها لم تكن تعرف شيئا، فعلاقتها انقطعت بها منذ أن تركت جانيت الخدمة. وكانت بالكاد تعرف بيل على أنه صديق جانيت. لما أخبرتها بأنى أخوه رحبت بى وأدخلتنى إلى غرفة الجلوس، وصنعت لنا بعض الشاى، وتحدثنا عن تلك الأيام البعيدة فى بيليو قبل أوفرلورد، وانطلاق البالون.

أعرف أنها قالت ذلك لأنها كانت فتاة صريحة فى ذلك الوقت، فعندما أخبرتنى ماى سبينكز بذلك علمت أنها حقيقة لأنها نفس الكلمات التى يمكن أن تقولها جانيت فى ذلك الوقت. ربما كانت هذه الصفة فى شخصيتها وطريقتها فى التعبير هى التى جعلت الجنود يرهبون استياءها. فكونك تتعرض للتأنيب من قبل بحرية تستخدم كل حيوية ولهجة ضابط الصف كان شيئا مرعبا، ولقد كانت بها قساوة أنثوية جعلتهم يشعرون بأنها لن تتردد فى تنفيذ تهديداتها.

لقد لمست فيها هذه الصفات عندما قابلتها مع بيل فى ليمنتجون، فى أبريل عام ١٩٤٤ . كانت تحيطها الصراحة، والمباشرة فى الحديث، والمشاركة غير المحدودة التى كانت تريح الرجال الذين أرهقوا فى الأسابيع القليلة التى سبقت الغزو. كانت مناسبة جدا لبيل. فما كان عليه أن يفعل شيئا من أجلها. لقد كانت تضحك وتشعر بالحرج إذا أهداها باقة ورد،

علاوة على أنه كان مرهقا ومشغولا برحلاته للجانب الآخر، فلم يكن يستطيع التفكير فى أى شىء آخر. فهى التى أحضرت لنا القارب لكى نعبر به إلى سولنت، كان قاربا بحريا أخضر صغيرا، قارب صيد تقريبا. عندما حضرت إلى الميناء وجدت بيل فى ملابسه العسكرية، والبوت المطاط، ومعه كلبه، وكانت جانيت ترتدى بنطلونا صوفيا متسخا بعض الشىء، وبوتا مطاطيا، وسترة صوف زرقاء، ومعطفاً ملطخاً بالشحم. تركت سيارتى واستقللت القارب.

قدمنى بيل إلى الفتاة، فصافحتها، وتفحصتنى جيدا، وابتسمت: "لقد أحضر بيل لك زيا مشحما بعض الشىء، ولكن لم أكن أدرى ماذا تلبس، أخشى أن يكون القارب غير مناسب: وتناولت قطعة من القماش القطنى وراحت تنظف بها مقعد التجديف.

كان الزى الذى أرتديه قديما، ومهلهلا من كثرة الغسيل، ومع ذلك به بقع من الزيت لا تمحى، فقلت لها: "سأكون على ما يرام، لا تشغلى بالك بى".

فقالت: "أخشى أن تتسخ ملابسك، فعلى كل حال البس هذا الزى المتسخ، قد يبدو الجو رطبا، إذا درنا حول كيهيفن".

فقال بيل: "المد شديد، ولكن ليس هناك رياح، لن يكون الأمر سيئا".

راحت لكى تدير ذراع تدوير المحرك، فعرضت عليها مساعدتى فرفضت، وأشعرتنى بأنى فعلت شيئا خطأ، فقالت: "ستعمل، لا تشغل بالك، فأحد الجنود انكسرت ذراعه من عدم معرفته بتشغيلها منذ أيام، ولكنى أتعامل معها بحرص"، وراحت تدير الكاربيراتير، وانحنت فوق المدور، وأعطت دفعة قوية، لقد كانت فعلا فتاة مفعمة بالحيوية. بدأ المحرك يتخبط داخل الصندوق، وتحركت نحو المؤخرة، وفكت الحبل فسقط فى الماء، ثم بدأت تلفه بخبرة فائقة. وترك بيل المقدمة وأخذت الفتاة الدفة ودفعت الرافعة بقدمها، وبدأ القارب فى الإبحار فى النهر.

لم يكن هناك أى قوارب مدنية فى الساحل أو مبحرة فى ذلك الوقت، ولكن النهر كان مكتظا بالزوارق الحربية، ومعدات صلبة تشبه الصناديق، لكى تشحن الزوارق وهى مربوطة بالطوافات، والأعلام المتسخة ترفرف فوق المقدمة، والجنود المتعبون الذين يقومون بالصيد على الشط ينظرون إلينا ونحن نشق المياه أمامهم. لم أكن أعرف ما تلك السفن أو وظيفتها، ولكن جانيت وبيل يعرفان، فأخبرانى باختصار عنها، وعن مهمتها، فهذا زورق بريطانى، وتلك سفينة أمريكية التصميم والصنع أرسلت إلى انجلترا، للتموين، وبعض المعدات لتنقية الشواطئ لاستقبال الزوارق العائدة بسلام، وأخرى لتفجير الألغام، وأخرى لسد الثغرات. جاء زورق سريع نحونا، عليه بحارة أمريكان بزى أبيض، يرتدون الكابات بالعكس. كل هذه الزوارق والمعدات البحرية كانت معروفة بالنسبة لجانيت وبيل ماعدا معدة غريبة الشكل لم تكن معروفة لهما.

سألت جانيت بصوت منخفض: "لست أدرى ماذا يفعلون بهذا الشىء"، ولكن لم يجبها أحد منا، ربما بيل كان يعرف ولكنه التزم الصمت. فكل منا لديه ما يحتفظ به من سر. ورحت أسأل: "هل لديكم معدات ألمانية هنا، هل ألقى نظرة؟

فأجابت الفتاة بابتسامة: "لا، لم نحصل على شىء ألمانى منذ أسابيع، أو شهرين تقريبا".

فأجبتها بلامبالاة: "تعتقدين ذلك؟ . حسنا إن قواتنا أعلى من الألمان، فلا شىء يتجاوزنا، وخسائرنا طفيفة. ربما لا يعرف الألمان ما نعده لهم فى سولينت من مفاجآت.

وصلنا إلى نهاية النهر، وترامت ويست سولينت أمامنا، سماء زرقاء لامعة فى شمس أبريل. انتقل بيل إلى مؤخرة السفينة بجوار الفتاة،

استدرت لكى أقول لهما شيئا ما ولكنهما كانا ينظران إلى الشاطئ، لبعد أربعة أميال من الساحل. فقال بيل: "إن شارمان مازالت على الشط".

فقالت: "هذا لا يقلقهم، فلن يستطيعوا جرها للجرف".

فسألت: ما هذا؟

فأشارا إلى الشط، بعيدا جدا عن جانب القناة: "تلك الدبابة، التى فى مقدمة الشاطئ، بجوار الجرف، إنها كانت تجوب الساحل ولكنها وقعت فى حفرة".

والتفتت إلى الفتاة شارحة: "لقد غاصت تحت المياه، وغرق فيها شاب، السائق".

كانت العبارة تعبر عن حقيقة بسيطة، لاعاطفة فيها.

فقال بيل: "يمكنهم أن ينقذوها، لو أتعبوا أنفسهم قليلا، يمكن أن يربطوها بدبابة جر ويسحبوها إلى الشط".

فقالت الفتاة: "لن يفيد، فالمياه أتلفت المحركات، فلا تستحق التعب، ولاسيما أنهم أخرجوا منها كل الأسلحة".

فسألت: "متى حدث هذا؟

فقال بيل: "منذ خمسة أسابيع". ثم ابتسم للفتاة، وأردف بهدوء". هذا هو سبب لقائى بجانيت

لقد سمعت الكثير عن ذلك اليوم عندما قابلت فيولا بعد ست سنوات، وكذلك حكى لى الضابط فينش بعضا عنه حينما تحدثنا عن بيل. كان ذلك فى مارس، ربما يوم عشرين منه. كانت جانيت فى ماستودون لمدة تسعة أشهر تقريبا. لما ذهبت هناك كانت تعتقد أنها ذاهبة لقاعدة ساحلية لإصلاح بعض الأسلحة فى طوربيد، لقد أخفى الأمن أنها ذاهبة للمشاركة فى غزو نورماندى.

لقد وجدت أن ماستودون عبارة عن فرقاطة، على بعد ثلاثة أميال من نهر بيليو، الذى يجرى فى غابات نيو فورست، وفى مساحة كبيرة من الريف، وكان يسمح فى الثلاثة أميال الأولى أن يستوعب إنزال الفرقاطات والزوارق، ولكن بعد ذلك يصبح ضحلا، لا يصلح للإنزال. كان من بين المعدات الراسية، ماستودون، التى فوجئت بها جانيت برنتيس ومای سبنكس، عندما أقلتهما الشاحنة إلى هناك فى يونية عام ١٩٤٣ .

تسلمهما ضابط صف البحرية، وأخذهما إلى حيث أقامتا فى معسكر مقام على ملعب تنس. راحت الفتاتان تتمشيان فى المساء وهنا يُرثى لحالتهما فى مكان لا تتم فيه عمليات، وبعيدا عن أقرب سينما بحوالى عشرة أميال. فى ذات الوقت كانتا مرغمتين على إداركهما بأنهما فى أفضل مكان للبحرية فى إنجلترا. عبارة عن منزل حجرى، على أحدث طراز، وفوقه سارية بعلم أبيض يرفرف. كانت الفتاتان تتمشيان طوال المساء بين أجمات النباتات الوردية المتفتحة. ونبات السرخس، وأشجار الأرز، وأحواض السباحة، وقنوات المياه التى تروى مختلف المساحات الخضراء والنباتات. ولقد علمتا أن عدد عمال الحدائق نقص من خمسين عاملا إلى ثمانية عشر عاملا عجوزا.

وأخيرا دلفتا أثناء تجوالهما إلى غابة منسقة، فوجدتا النهر يجرى بين الأشجار، متأثرا بالمد والجزر. انتهى بهما الممر إلى رصيف خاص بجوار كوخ ومنزل صغير للسكن بجوار الشاطئ. راحتا تتأملان النهر العريض بمياهه المتدفقة، لقد كان مساء هادئا، ومشمسا، وجميلا جدا. حيث الحمامات تحلق هنا وهناك، وكذلك نوارس البحر. فجأة ظهر زورق صغير تديره فتاتان بحريتان بملابسهما الصوفية والبنطلونات الواسعة، وأنزلتا ضابطين بحريين على الرصيف.

قالت جانيت وهى تتأمل: "لا يبدو أنه مكان لأسطول بحرى، ولكنه مكان جميل".

فردت مای سبينكز: "نعم، رغم عدم وجود سينما. وأين السفن، لقد اعتقدت أننا جئنا لإصلاح بعض المعدات، ولكن لا أرى شيئا على الإطلاق".

لكنهما فى الحال اكتشفتا وجود سفينة أو اثنتين فى النهر، وإن كان من المتوقع وجود أكثر. لقد كان ضابط المعدات مشغولا ببناء كوخ بجوار الرصيف ليكون ورشة عمل لهما. كان ضابطا مثابرا ونشطا، أصيب فى الحرب منذ سنة، وكان معه ضابط صف يساعده فى بناء الكوخ، ولكن كانت فتاتا البحرية مصدر إحراج بالنسبة له فى ذلك الوقت، فقال لهما: "اسمعا، ليس لدى عمل لكما، ولمدة ستة أسابيع، فرتبت لكما مكاناً مع طاقم زورق حربى - لتأخذا فكرة عن النهر، وكيفية إرساء السفن ومعداتها، وها هو راديو خاص لكما، ستجدان فيما بعد عملا كثيرا لتقوما به. لو تسببتما فى أى مشاكل سوف أعيدكما إلى المستودع وأرسل فى طلب اثنتين أخريين عندما يبدأ العمل، إن لم يكن سلوككما سليما فستفقدان هذا العمل الجيد بالفعل.

مرت الشهور التالية على جانيت فى منتهى البهجة والسرور. لكنها ما كادت تدرك ذلك لأن الثمانية عشر شهرا التى قضتها فى الأسطول فى فورد كانت عملا شاقا بالنسبة لها، أرهقها أكثر مما كانت تتصور. فهنا فى المكان الهادئ على نهر بيليو لاتوجد حرب، ولا عمل، غير أنها تجلس تحت أشعة الشمس بين الأزهار تقرأ الشعر. لكن بدلا من ذلك انضمت لبحريات أخريات فى زورق حربى مثل فيولا داوسن، وشيليا كوكس ودوريس سميث، وكانت تقضى معظم وقتها معهن. حتى إذا جاءت سفينة لإصلاح ما، كانت فيولا تأخذ جانيت فى الزورق وتقلها على سطح السفينة وتتركها لمدة ساعتين تقريبا لكى تسأل ضابط الصف أو القائد عن أى أسلحة تحتاج

لإصلاح أو أى معدات أخرى فى السفينة. كان من المعتاد أن تكون هناك أعطال، فتقضى ساعة أو أكثر تفك معدة أية اسطوانة مدفع، مع أحد الجنود، وقد تلطخت يدها تماما بالشحم. كان لديها حس ميكانيكى، وكان مجرد وجود صدأ على معدة يؤذى مشاعرها. فكانت إذا ما رأت شيئا من ذلك وجهت توبيخها للجندى القائم عليها: "انظر، إذا رأيت ذلك مرة أخرى فسوف أبلغ قائد المعدات ليوجه اللوم إلى رئيسك، أنا لا أمزح، سوف أفعل ذلك فعلا، أنا لم أر إطلاقا مثل هذه القذارة على سلاح فى حياتى"، وكانت تمكث فى السفينة لتتناول قدحا من الشاى مع بعض الضباط أو فى الكانتين مع بعض الرجال حتى يأتى لها الزورق مرة ثانية ويذهب بها إلى الميناء حيث تبلغ القائد بما هو مطلوب.

ازداد العمل فى منطقة بيليو على مدى الخريف والشتاء، ومعها جاءت بعض الأمور الغامضة. فقد أخذت القوات البحرية قصر ليب هاوس الذى كان يطل على النهر، وصار يعرف بأنه أحد أسرار القوات البحرية. كانت مجموعة الإنشاءات تعمل بكل طاقتها لإنشاء رصيف منحدر يغوص فى المياه ليحمل المعدات والدبابات فى الطائرات أو السفن. كان هذا المكان يبتعد عن ماستودون بحوالى ميلين. وكان يتم فى هذا المكان أشياء سرية بمعدات متنوعة بين آلات سحب وأوناش وكابلات، وشىء ضخم جدا يشبه البكرة عائم على الماء؛ "بلوتو". وهو خط أنابيب ضخم يمر تحت مياه المحيط، من انجلترا إلى فرنسا، وهو خط أنابيب بترول لإمداد القوات التى ستنزل فى نورماندى. وفى معسكر قريب كان هناك ألف عامل يقومون بإنشاء منشأ خرسانى ضخم اسمه فينيق، وهو واحد من عدة منشآت على الساحل، لم تعرف حتى نهاية الغزو بأنها ميناء بديل على الساحل الفرنسى الشمالى.

أما على اليابسة، فكانت الغابات مكتظة بمقالب بالذخائر المخزنة تحت هناجر من الحديد المضلع. كانت تأتى الآلاف منها فى فترات منتظمة. كانت هناك محطات للرادار، وأجهزة راديو منتشرة فى كل مكان، والأرايل الرفيعة تنبثق من الأجمات، وأكوام القش، والحافلات. وبينما كان الشتاء يذوب فى الربيع، كانت الطائرات تحلق فى كل مكان فى البلد كسلاح يدل على مدى القوة العسكرية.

فى منتصف مارس تقريبا كانت جانيت فى صباح يوم ما تنتظر فوق الرصيف زورقا يقلها عبر النهر لمقر القاعدة فى زيارة روتينية، وكان معها شيلا كوكس، ودوريس سميث، ولكن فيلا داوسن، ربانة الدفة، لاتزال فى مكتب القيادة، فى ماستودون، تتلقى تعليمات لعملها التالى. جلست الفتيات الثلاث على الرصيف، وهن يدلين أرجلهن فى الماء، يحكين عن جارى جرانت، والحفل الراقص فى الأسبوع القادم.

جاءت فيولا تهرول نحو الرصيف، فوقفت الفتيات مندهشات، وراحت فيولا تقول وهى تلهث: "يجب أن نسرع، فهناك حادثة شطية، فى أوربوينت، علينا أن نحضر مجموعة مصابة من هناك".

فاسرع بهن الزورق فى أقصى سرعة فى لحظات، ومعهن جانيت لتنزل فى الطريق فى مقر القاعدة، وبعدما التقطت فيولا أنفاسها جلست فى مكان قيادة الزورق وأخبرتهن بما عرفت. بينما كانت فى مكتب القيادة رنت أجهزة الراديو، وفى نصف دقيقة كان الجميع على أهبة الاستعداد، فهناك حادثة حدثت لدبابة على شاطئ قرب نيوتاون، والدبابة تحت المياه، وانحبس فيها الطاقم، ولربما غرق البعض، والمجموعة التى يذهبن لإحضارها هى المجموعة التى أنقذت من الطاقم.

قالت دوريس: هناك شىء غامض فى هذه القصة، ما الذى ذهب بالدبابة تحت الماء؟

- لا أدرى.

وسألت شيلا: "أى نوع من أدوات الإنقاذ هناك؟ لا شىء فى أوربوينت".

- لا أدرى أيضا، التعليمات أننا نذهب هناك فى أقصى سرعة ونتلقى التعليمات هناك.

تمثل أور بوينت منعطفا فى نهر بيليو، وتبتعد عن المدخل بحوالى ميل، والنقطة عبارة عن مرعى مهجور ومستنقعات بحرية. عندما وصلن إلى هناك رأين ناقلة بحرية فى نهاية الممر، وبها ثلاثة جنود بحرية فى انتظارهن. كانت معهم معدات غريبة، وبدل ووتربروف، ولفات غريبة بها اسطوانات معدنية. كان النزول فى منتهى الصعوبة. أخذت فيولا تجرى على مقدمة الزورق المائلة إلى المستنقع البحرى، واندفع الجنود الشبان إلى سطح الزورق وقد غطاهم الوحل، ثم عادت بصعوبة، فسألها الضابط: هل تعرفين إلى أين أنت ذاهبة؟

- لا يا افندم.

- هل تعرفين نيوتاون؟، حسنا، هى على بعد نصف ميل من المدخل، استغلى كل ما لديك. لو أننا اسرعنا سننقذ أكبر عدد منهم، والتفت إلى الضابط. خذ هذا اللاسلكى، ودعنا نعرف الموقف تاما.

قالت فيولا: هل يمكننى أن أمر على السفينة الساحلية، لكى أوصل هذه البحرية؟ فهى مسئولة عن الصيانة ولديها عمل هناك؟

- لا، أسرعى الآن إلى نيوتاون، وأنزليها فى طريق عودتك، وذهب إلى خلف الزورق ليقابل بعض الجنود، وأخذ جهاز اللاسلكى من أحد الضباط، وراح يتكلم فيه. بدأ الضابطان يخلعان ملابسهما. وتحول انتباه القائد للحظة قائلا: "وأنتن يا فتيات، انظرن للأمام".

بعد ربع ساعة، كان الضابطان قد ارتدى كل منهما بدلة غطس مطاطية بخوذة مطاطية محكمة على الوجه، ونظارة معظمة على الجبين.

لقد سمعت جانيت فى حديث ما عن الضفادع البشرية ولكن لم ترها، ولم تعلم أن هناك فى حيزها بعضا منها. تقدم القائد نحو المقدمة، حيث فيولا تقوم على عجلة القيادة، وقال: "هذا هو الوضع يا ربانة، كانت الدبابة شارمان قد أنزلوها على الشاطئ، تعرفين كيف؟ أنزلت السفينة سلمها فى الماء وصعدت عليه الدبابة نحو الماء، ثم الشاطئ، ولكن كانت هناك حفرة فى الشاطئ فغاصت فيه الدبابة، وغرق برجها. خرج كل الطاقم ماعدا السائق، ومازال فيها. حاولوا أن يربطوها بدبابة أخرى ويسحبوها، ولكنها كانت معشقة، ومن الصعب تحريكها، وحاولوا الدخول فى الدبابة وإخراج السائق ولكنه كان عالقا فى التروس، ومازال هكذا".

فقالت فيولا: متى حدث ذلك؟

ـ الساعة الحادية عشرة إلا عشرة.

فنظرت فى ساعة يدها فكانت الحادية عشرة وخمساً وعشرين دقيقة، ولا يزال أمامهم ميلان، برغم أن الزورق يسير بأقصى سرعة، وقالت: "سيكون مات! أليس كذلك؟

ـ ليس بالضرورة، ولكن انظرى، أريدك أن تفعلى ما سأقوله. سيكون المد جهة الغرب، اذهبى إلى الدبابة مباشرة وأنزلى هذين الشابين فى برجها، واقتربى منها من الناحية الآمنة من الرياح، أى الغرب، واتجهى نحوها. وأسرعى بربط حبل فى البرج لو أمكنك.

ـ تمام يا افندم".

ذهب القائد إلى الخلف، وجاءت جانيت لتقول لفيولا: ماذا تريدين منى أن أفعل؟

فقالت الربانة: "ساعدى الجنود لو أمكن، سأحتاج شيلا ودوريس للقارب".

اقتربوا من الشط، وكانت الناقلة قد تخففت من ثقل الدبابة، وطفت على السطح، وتراجعت للخلف، ومربوطة من المؤخرة بالهلب. رأوا فى المسافة ما بين السفينة واليابسة تعكيرا فى سطح المياه، والذى كان هو برج الدبابة الغريقة، والإريال الرفيع مرتفع أعلاه. كانت هناك دبابة أخرى على الشاطئ، وعدد من الجنود، بعضهم فى الزى العسكرى، والبعض بلا زى، مبتلين. فاتجهت فيولا نحو الدبابة مباشرة، وتوقفت هناك.

كان الجنديان فى ملابس الضفادع البشرية فوق الدبابة فى لمح البصر، وعليهما الأقنعة والخوذات، وعلى صدرهما اسطوانات الهواء، تسلل أحدهما من خلال فتحة الطوارئ، ملتويا يمينا ويسارا، يساعده رفيقه، الذى ظل على سطح الدبابة الغريقة، متدليا محدقا فى فتحة البرج. دخل أسفل الفتحة حتى ظهر جسم العريف سائق الدبابة وهو يرتدى الأوفرول العسكرى، فسحبه الجندى الذى أعلى السطح بينما الجندى الذى أسفل سطح الماء يدفعه إلى أعلى. صعد الكابتن البحرى بزيه العسكرى على السطح ليساعد الجندى فى سحب السائق. راحت جانيت وشيلا تأخذان السائق إذ أتى به الجندى لهما، وألقيت به فوق سطح السفينة، وراحت جانيت تديره على ظهره، وأخذت تقوم بالإجراءات التى تعلمتها فى المدرسة تجاه التنفس الصناعى. لقد كان شابا، له شارب صغير، يرتدى أفرولاً، ووجهه أزرق بابيضاض، ملمسه بارد برودة الموت.

صعد الجنود الثلاثة إلى سطح المركب، بمساعدة البنات الأخريات. قال الذى كان داخل الدبابة: "لقد وضعتها فى حالة عدم التعشيق يا افندم"، لاحظت جانيت أن الجندى يتحدث بلهجة طفيفة قد تبدو كلهجة الكوكنى البريطانية، ولكنها لم تلق بالا لهذا فى ذلك الوقت.

وقفوا وهم يتقطرون ماء، ويستندون على أعمدة المظلة، وينظرون إلى جانيت وهى تقوم بالتنفس الصناعى، فسألها أحدهم: "مات، أليس كذلك؟

فنظرت لهم، وقالت: "أظن ذلك، ولكن هل فيكم من يقوم بدورى، هل ما أقوم به صحيح؟

فقال القائد: "أعتقد ذلك، استمرى، خذينا يا ربانة نحو الشاطئ لنأخذه إلى البر".

فقالت فيولا: "أخشى ألا أستطيع العودة لو ذهبت إلى هناك، فالمد شديد هناك، يا افندم".. تعنى أنها لا تستطيع أن تمكث فى الرمل طويلا حتى لا تنحصر السفينة وتضطر إلى أن تنتظر إلى أن يجىء مد آخر.

- استمرى، قد نستطيع التصرف، فهناك ناقلة ربما نجد عليها طبيباً يتعامل مع الشاب.

ذهبوا إلى هناك، ورسيت السفينة على قرب من الساحل، فخاض ضابط بحرى نحو الشط وسحبوا المصاب إلى هناك على سطح المركب. وهنا قالت جانيت: "فليقم أحدكم بدلا منى، فلم أعد بحالة جيدة".

فركع الضابط بعد تردد بجوار المصاب وأخذ يقوم بالتنفس الصناعى، وصعد جنديان آخران على السطح. ونهضت جانيت، وهى متلهفة للابتعاد عن الجندى الميت الذى كانت تتعامل معه. رجعت إلى الخلف لمؤخرة السفينة، حيث يخلع الجنديان بدل الضفادع البشرية.

فقالت: "أوه، آسفة، ولكن أليس مع أيكما سيجارة؟ فقد كانت مسرورة لأنها تركت برودة الرجل الميت، وأصبحت مع شباب أحياء.

فقال أحدهما، ذو الشعر الأصفر، واللهجة الطفيفة: "معى، فى ملابسى تلك"، وأخرج من الجيب علبة سجائر وعلبة كبريت وأعطاهما لها وهى جالسة تحت المظلة. فأخذتهما وهى تقول: "شكرا، الآن استمرا فى خلع

البدل، لن أنظر لكما". واشعلت سيجارة بيد ترتعش، ونفثت سحابا كثيفا من الدخان، وراحت تسترخى.

وقال الجندى ذو الشعر الأصفر، وهو يرتدى ملابسه: "مات، أليس كذلك؟

فردت دون أن تنظر: "من المفترض، فليس هناك أى إشارة للحياة".

قال: "فعلا، فقد ظل تحت المياه أكثر من خمسين دقيقة".

جلست تستدفئ بأشعة الشمس، وهى تتأمل زرقة المياه، وكان الجنود فى الملابس الكاكى لايزالون يتعاملون مع جسد السائق. كان اليوم من أيام مارس الدافئة، استهلالات الربيع، والذى تمتلىء فيه الشواطئ بالمصطافين، والقوارب الصغيرة، والأطفال وهم يبنون قلاعا من الرمال بدلا من تلك الدبابة الغريقة فى الماء، والملابس الكاكى المبتلة والسائق الميت. وقعت عيناها على ناقلة قادمة نحو ممر نيدلز متجهة إلى ساوثمبتون، فأخذت تتأملها وهى تمر أمامها. ومر فوقها سرب من القاذفات متجه إلى فرنسا، ومرت بعض الزوارق بجوارها، وكذلك كاسحتان للألغام.

وقف الجندى ذو الشعر الأصفر بجوارها مرتديا قميصا وبنطلونا وقد أشعل لنفسه سيجارة، فبدا لها شابا أنيقا، حسن المنظر، إنه بالطبع بيل. نظر نحو السطح وقال: "لم يفلحوا، أليس كذلك؟

فترددت، وقالت وهى تنظر إليه: "لا أعتقد، هل ما قمت به أنا كان صوابا، فلم أقم به من قبل بهذا الشكل؟

فقال بيل: "كنت تقومين به بشكل جيد، لقد كان تحت الماء قرابة الساعة".. وأخذ ينظر إلى الناقلة وهم يرفعون الهلب لكى تتحرك قبل أن يحاصرها المد، وأضاف: "يجب أن يمسحوا المنطقة قبل أن يقوموا بأى عمل".

فى تلك اللحظة جاء القائد: "سنظل هنا حتى الساعة السادسة كما أبلغت بذلك الربانة"، وأخذ جهاز اللا سلكى واتصل به مرسلا رسالة للطرف الآخر لكى يبلغوا رسالة إلى ماستودون. وراحوا يهبطون من السطح ليقفوا على الرمال المبتلة، وهو يتحدث مع الجنود حول الحادث، بينما المد على أشده. قال القائد، ولاتزال السفينة غاطسة فى الرمل: "كانت هناك ناقلة أخرى، مسحت الرمال وتركت تلك الحفرة".

تم تجهيز العشاء لجنود البحرية والبحريات، فوق جرف يبعد نصف ميل عن الشط. ذهب بيل وجانيت معا، وتناولا العشاء بعد أن انتهى الآخرون. سألته جانيت: "أين مقركم، أنا لا أعرف أين فرقتك".

فقال: "فى كليف فارم، على بعد ميلين من المكان الذى أخذتنا منه، لقد كنت فى المكان الذى تقيمين فيه منذ أسبوعين، ولكن لم أرك هناك".

فقالت: "ربما كنت فى النهر".

كانا يجلسان بجوار بعضهما البعض فى خيمة الطعام. وبعد أن تناولا الطعام تمشيا معا على الشاطئ. سألها الضابط: "ما اسمك؟"، فأخبرته وسألته: "وما اسمك؟"، فقال: "بيل دونكان"، وأشار إلى الضابط الآخر- وهذا بيرت فينش"

فسألته: هل تعيش فى لندن؟

- هو يعيش، أما أنا فلا، أنا من أستراليا، هل اعتقدت أنى من لندن؟

فارتبكت: "لا أدرى لماذا فكرت هكذا".

- من طريقة كلامى، حينما أذهب إلى موطنى يقولون لى إنى لم أعد أتحدث الأسترالية، وهنا يميزونها.

- هل عشت كثيرا فى بريطانيا؟

- لقد جئت قبل الحرب، بعد أن انتهيت من دراستى، كنت أقوم بأخذ منهج دراسة فى الزراعة، إننا نمتلك مزرعة فى وطننا.

سألته: ما الذى جعلك تلتحق بالبحرية؟

فرد: "إنها أكثر متعة، وبها أشياء مشوقة مثلما حدث الآن".

- إنك تطوعت لهذا؟

فابتسم: "أنا أحب السباحة".

واستمرا فى التمشية معا على الشاطئ، وقضيا معا كل فترة ما بعد الظهر، شعرت بالغبطة لأنها معه، فقد اكتشفت أنه شاب متواضع، سهل الحديث معه، ولقد أعجبت به من لحظة شجاعته فى النزول إلى الدبابة الغريقة. لقد أخبرها بأنها المرة الأولى التى نزل فيها داخل دبابة غارقة، ولكم هى مظلمة فى الداخل. بينما هى سبق أن دخلت فى دبابة، ولكن فى وضح النهار، وعلى اليابسة وتعرف جيدا ما بداخلها. كانت تشعر بأن مجهوده الذى بذله فى استخراج السائق عظيما، وعبرت له عن هذا الإعجاب.

عادا أدراجهما إلى الخيمة وتناولا كوبين من الشاى، ثم ذهبا إلى السفينة، وراحا يدردشان ويدخنان معا، حتى جاءت الساعة السادسة، وبدأت فى التحرك.

وعندما وصلت إلى نقطة البحريات قالت جانيت: لدينا حفل راقص يوم السبت، لما لا تأتيان معنا؟

الفصل الرابع

جلست أمام المدفأة فى غرفتى فى كومبارجانا، أقلب فى الصور، غارقا فى الذاكرة. أخذت أفكر فى تلك الليلة الساكنة، ماذا لو أن بيل لم يلق مصرعه، كان سيأتى هنا بعد الحرب، ويستقر، وبلا شك كان سيحضر معه جانيت برنتيس، ولأصبحا زوجين كفؤين للعمل فى المزرعة. أعلم أنه لا يحب أن يمكث فى بريطانيا، فهو ذهب فقط لأخذ كورس الزراعة، فهنا يتطلعون لأى دراسة عليا من انجلترا، فهى أفضل من الخبرة وحدها. أعلم أنه كان سيصبح مزارعا أفضل منى.

جانيت كانت ستأتى جانيت، كسيدة منزل، لا كخادمة. علىّ أن أقلب فى أوراقها الخاصة لكى أعرف لماذا وكيف جاءت إلى هنا. فالإجابات عن كل الأسئلة تكمن فى هذه الحقيبة القابعة على الطاولة.

كان من المحتمل أن أعرف عنها الكثير لو أنها جاءت زوجة لبيل، وعاشا معا فى الغرفة التى تجاور غرفتى فى الممر. كنت سأعود لكى أحصل على

شهادة إكسفورد، وما عدت لأبحث عن جانيت برنتيس، وما كنت قابلت أيا من هؤلاء مثل مای، وواترز أو فيولا.

لقد عرفت عنها الكثير، معظمه من الشائعات، فأبعدتها عن ذاكرتی تماما، كما قررت ذلك أثناء جلوسی فی غرفة نومی فی فندق سانت فرانسيس من عدة أيام. وكأننی وضعتها جميعها فی حافلة نقل وأرسلت بها لحجرة الخزين، والآن ما فتحت هذه الحافلة مرة أخرى. لقد ركزت الذاكرة على يوم واحد، يوم أن قابلتها قبل انطلاق البالون. مازال ذلك اليوم محفورا فی ذاكرتی، فبعد تسع سنوات مازلت أذكر جيدا كيف كانت تتحرك، وتتكلم، وتفكر فی الأشياء، حتی إنه أنعش كل ما التقطته من معلومات من هؤلاء الناس الآخرين.

أعتقد أن بيل صار إنجليزيا أكثر فی فترة ابتعاده عن الوطن لمدة خمس سنوات، أو أنه كان معتزلا. ففی الموطن لا أعتقد أنه كان سيصاحب كلبا أليفا مثل ديف، وكان يتجول معه فی المعسكر أحيانا، أو انتقل معه. ولو كان فی موطنه ما كان سيسمح لديف أن يدخل المنزل، حتی لو أنه استطاع مطاردة الأرانب البرية، وإن كنت أشك فی ذلك، فهو ليس مفترسا بما فيه الكفاية، فهو كلب من هذه النوعية المتخبطة، الضعيفة، التی لا تصلح إلا لرجل أو امرأة وحيدة.

لقد كان ديف معهما فی القارب يوم أن كنت معهما، كان جالسا على المؤخرة، فاردا أذنيه، مستمتعا بالرحلة. قالت لی جانيت: "أعتقد إنه كلب غير شرعی لأسرة غير مُرضية، إنه أحمق، ولكن لا تستطيع ألا تحبه".

عندما وصلنا لمدخل نهر لامنجتون، أدارت القارب جهة الغرب، وبدأنا ندور حول مستنقعات الساحل الشمالی لسولنت. كان البحر هائجا، ولكنه كان هادئا قرب الساحل، فقالت سأحتفظ بالسير قرب الساحل من أجل

ملابسك، راقب لو أن هناك أى عائق، مثل جذع شجرة، أو ما شابه، فسيكون الأمر صعبا لوحدث أى ثقب فى القارب".

وقفنا أنا وبيل نراقب المياه، وقلت له: "كيف استطعت الحصول على قارب؟

فابتسمت: "إننى هنا لمدة تكفى أن ألم ببواطن الأمور، فللحقيقة، هم لا يمانعون، فى أيام الآحاد، حيث لا تستخدم القوارب".

كنا محظوظين بهذا الجو، فاليوم دافئ ومشمس، ورحنا نلف حول سهول طينية على طول لسان ينتهى بهرتس كاسل، ثم اتجهنا لنهر آخر، يؤدى إلى كيهافن، وذهبنا إلى رصيف متداع فى نهاية اللسان. ثم ذهبنا إلى الشاطئ. كنا قد أحضرنا معنا الغداء، وثلاث زجاجات بيرة من الفندق، وجلسنا على عشب قصير على الساحل، ليس بعيدا عن القارب، وتناولنا الغداء، والبيرة ودخنا. كان من النادر أن نقضى يوما كهذا فى أيام الحرب.

أثناء تناولنا الطعام قالت لى: "أخبرنى بيل أنك كنت تدرس فى إكسفورد قبل الحرب".

- نعم، فى هاوس.

- ماذا كنت تدرس؟

فقلت: "القانون، إنك تعيشين فى أكسفورد، أليس كذلك؟

فأومأت: "يعمل والدى مدرسا فى ويكهام، ونحن نعيش فى كريك رود".

فقلت: "أعرف كديك رود، إنه مكان لطيف".

فقالت، لقد عشت عمرى كله فى كيدك رود، ولكن ما الذى جعلك تدرس فى إكسفورد، أليس هناك دراسة قانون فى أستراليا؟

- لقد درست جزءا فى جامعة ميلبورن، إنى رجل مسن، لا أدرى لماذا جئت إلى أكسفورد سوى إنى رغبت فى ذلك. لدى منحة من رودس وأعتقد أنه خسارة ألا أستفيد بها.

فبحلقت، وكأن هناك شيئا يعنيها: "هل أنت باحث فى رودس؟

- نعم، إنها سنة صعبة للاختيار.

- هل التحقت بالقوات الجوية عندما اندلعت الحرب؟

- لقد كنت فيها قبل ذلك، نوعا ما، إذ كنت فى سرب الجامعة الجوى.

- أخبرنى بيل بأنك كنت فى حرب بريطانيا.

- هو كذلك، لقد قمت بطلعتين فى مقاتلتين، الأولى فى ثورنى أيلاند، والثانية فى ويسترن ديزرت، وكنت أقوم ببعض التعليمات فيما بينهما، ولكن بعد الثانية أرسلونى لقيادة المقاتلات.

- هل أحببتها؟

فهززت رأسى نافيا: "كنت أفضل أن أعود للطلعات القتالية، فمهمتى الحالية تنتهى بمجرد إطلاق البالون، وسأتقدم بطلب رسمى بعدها للطلعات"

- وهل سيمنحونك جناحا؟

- قائد الجناح لا يمنح جناحا، وإلا سينزل درجة.

فقالت: صعب أن تنزل درجة، ولكن هل تفرق فى الراتب؟

- قليلا، ولكن لدى وظيفتى.

- هل ستعود إلى إكسفورد بعد الحرب؟

- لا أدرى، أشعر بالرغبة فى العودة للحصول على الدرجة العلمية، فلديهم كورس مكثف لمن يؤدى الخدمة فى الحرب.

- ألا تعتقد أن الوقت متأخر لكى تعود إلى التدريس بعد كل ذلك؟

- أحب أن أنتهى مما بدأته، لا أحب أن أترك النهايات معلقة، ونظرت إليها. ماذا ستفعلين أنت؟

فقالت: "كنت سأحاول الذهاب لصالة ليدى مارجريت، ولكن أخشى ألا أرى نفسى متقدمة لو ذهبت إلى هناك، لست أدرى ماذا أفعل، لم أفكر مليا فى الأمر".

فضحك بيل وقال: "سيتم اغتيالنا جميعا بعد إطلاق البالون، وسوف يتخذون القرار بشأننا".

وصل إلى سولنت نوع جديد من زوارق الإنزال. نسيت ما هو، فالأمر لا يعنينى، ولكنه كان مهما جدا بالنسبة لبيل وجانيت. أخذا يتحدثان عنه، وعن أنواع جديدة ظهرت للغزو، وكان لدى الوقت لكى أسترخى تماما على العشب، وأتأملها. لقد أردت أن أفعل ذلك لأنه من الواضح أن هذه الفتاة ستصير زوجة أخى. حقا، لم يظهر أنهما مخطوبان، فليس فى أصبعها دبلة خطوبة، ولكن من الطريقة التى تتحدث إليه بها، والتى ينظر إليها بها يتضح أنهما فى حالة حب. بعدما ينطلق البالون، سيصير لديهما الوقت الكافى للشئون الشخصية، ومن المؤكد ستتم خطوبتهما، ولربما يتزوجان قبل انتهاء الحرب. ولأن بيل كان مرهقا من شدة العمل الصعب، فالخطوبة الطويلة ستكون أرهقها مضاعفا له. لقد رأيت ذلك فى القوات الجوية الملكية، وكنت أعارض بشدة الخطوبة الطويلة، فليتزوجا فورا إذا أرادا ذلك.

بلا شك إذا تمت خطوبتهما أو تزوجا سترغب أمى فى التعرف عليها، ومن الصعب أن تسافر تلك المسافة الطويلة التى تبلغ اثنى ألف ميلا أيام الحرب، وحتى لو أنها استطاعت السفر لن تستطيع أن تترك العزبة. ولذلك ستطلب منى أن أؤكد لها أنها ستصبح زوجة لائقة ببيل، وبالتأمل فيها جيدا أيقنت أنها تصلح تماما لبيل وستسعد بها أمى، فهى لم تكن بارعة الجمال، فوجهها صارم وبسيط، وكتفاها عريضتان، وشعرها الغامق القصير به بعض التموجات، رغم وجود بعض الخصلات البنية الداكنة به. أستطيع أن أؤكد لأمى أن بيل لم يقع فى غرام فتاة فاتنة.

حاولت أن أتخيلها سيدة منزل فى كومبارجانا، وأتكهن كيف ستطبع نفسها على الحى الغربى. إن لها شخصية قوية، وصراحة فى الأسلوب تجعلها تتعامل مع الرجال بشكل جيد، وتمكنها من التعامل مع عمال المحطة عندما يكون بيل غير موجود. إنها ماهرة فى استخدام البندقية، الأمر الذى سيزيد من هيبتها. ربما لاتركب الخيول، ولكنها ماتزال صغيرة ومن الممكن أن تتعلم ركوب الخيل، وإن كان ذلك ليس بذى أهمية مثل الأيام الخالية. إنها فتاة عملية، وهذا هو المهم، وإنها تحب الكلاب، ولربما تحب الماشية والبهائم، وإدارة عزبتنا الكبيرة.

على المستوى الاجتماعى، قد تكون على كفاءة من التعامل، فهى لا تميل للعلاقات الاجتماعية الكثيرة، فهى لا تحب التبرج، ولا المشاركة فى الحفلات الخيرية أو حفلات الصليب الأحمر الترفيهية، ولربما يكمن معظم اهتمامها فى البيت، فهى سيدة منزل مثالية. وستكون مضيفة سخية لزوار كومبارجانا، وإن كانت لا تميل للبهرجة، إن لم تتغير كثيرا. كان من المحتمل أن تطور فى كومبارجانا، بل وفى أستراليا نفسها. لربما كانت ستحتفظ بحبها لركوب الماء، ولربما كانت كومبارجانا ستناسبها فى ذلك الشأن.

سوف يكون تقريرى عن جانيت برنتيس لأمى كاملا وجيدا. ربما لم تكن زوجة الابن التى تتخيلها أمى، أو تتوقعها، لكنى متأكد من أنها كانت ستحبها وتقدر فضائلها الرائعة. إنها ستكون سيدة متميزة فى كومبارجانا فى المستقبل، وزوجة صالحة لبيل، الذى أخذت أفكر فيه، وأنا راقد على النجيل فى كيهافن، بأنه رجل محظوظ.

كنت أستمع بلا إحراج عندما كانت تتحدث إلى بيل، متناسية وجودى تقريبا، والكلب ديف، واضع رأسه على ركبتها وهى جالسة على النجيل، بوضع عاطفى، وهى تدغدغ أذنيه. قالت لبيل: "إنك محظوظ جدا لأنك قادر على أن تحتفظ بكلب، أتمنى لو أستطيع".

- ألا تستطيعين؟

- لا أدرى، لم يحاول أحد، أعتقد أن الكابتن لن يسمح بذلك فى ماستودون. كل فرد يريد أن يقتنى واحدا لو وافق.

فأومأ بيل: "ما كان سيسمح لنا باقتناء كلاب لولا أننا فى هذا المكان المعزول. لا أعلم ماذا سيحدث له إذا انتقلنا من هذا المكان".

- هل تعتقد أنكم ستنتقلون قريبا؟

فقال: "لا أظن ذلك، فيمكننا أن نقوم بأى نشاط من خلال تواجدنا هنا، ولكن سننتقل فى يوم من الأيام"، ليس هناك ديمومة فى أداء الخدمة، راح ينظر إلى ديف بتأمل، وقال: "لا أدرى بأنها فكرة جيدة ليدعونا نقتنى الكلاب، قد تعجب بكلب ما ثم تشعر بمشكلة عندما تنتقل إلى مكان لا تستطيع أن تأخذه معك".

فقالت: "لا تقدر أن ترسله إلى البيت، لا أقصد أستراليا، أليس لك أى أقارب فى إنجلترا؟

فهز رأسه بالنفى: "لا ليس لهذه الدرجة". إذا كنت متأزما يمكننى أن أكلم ماما لتأخذه".

فرد: "صعب، من جهة التغذية".

- أعرف، لو أن أبى موجود لأخذه، ولكن نحاول طالما أنت فى مأزق.

فقال: "كنت أظن أن أباك فى إكسفورد طوال الوقت".

فالتفتت إليه، بحيوية وبهجة، أوه، نسيت، لقد وجدت خطابا بالأمس، ربما يذهب والدى إلى الحفل.

فحملق فيها: "ليس هذا الحفل؟

فقالت له ضاحكة: "هذا الحفل، سيتطفل عليها، وسيذهب أيضا عندما ينطلق البالون".

فسأل بارتياب: "إلى الجانب الآخر؟

فـردت: "إلى الجـانب الآخـر، على الأقل ترشح للذهـاب، ولا يدرى هل سيأخذونه أم لا".

- ولكن سيذهب بأية صفة؟

فأجابت: "معرف طائرات فى سفينة تجارية، إنهم يضعون شخصا أو اثنين من المدنيين على كل سفينة تجارية بصفة مراقب، فأعلنوا عن ذلك، وتقدم أبى لها".

- ولكن كم عمره؟

فقالت: "حوالى ثلاثة وستين، هو يرى أن العمر لا يهم، أعتقد أن هذا ظريف جدا".

فالتفت بيل إلىّ : "هل سمعت شيئا عن هذا؟

فى الحقيقة كنت أعرف الكثير عن هذا الأمر، فالأوراق الخاصة به كانت تمر على مكتبى، لذا كثير من حالات قذف مقاتلاتنا بالنار عن طريق المقاتلات الصديقة كانت تحدث حتى إننا كنا نعترض بشدة، ونطالب مقالاتنا بتحديد دقيق للسفن قبل الهبوط فى أى شاطئ. وأعتقد أن فكرة وضع مراقبين مدنيين على السفن التجارية كانت فكرتنا. فقلت مقرا: "نعم أعرف ولكن بغير وضوح".

فقال بيل: "هذا عرض رائع لرجل يبلغ الثالثة والستين".

فقالت الفتاة ضاحكة: "أحسب أن هذه هى الحدود، فأنا فى البحرية لمدة ثلاث سنوات ولم يسألنى أحد إذا كنت أرغب فى الذهاب للحفل. ثم يأتى أبى فى آخر لحظة ويظهر فى الحفل".

فسألت: "هل هناك بحريات أخريات سيذهبن؟

فهزت رأسها بالنفى: "لا، لم أسمع أن أحدا سيذهب، إنه غير مسموح لممارسة أى نشاط على السفن، فنحن ملتزمات بالشاطئ".

سألتها عما فعلت فى القوات البحرية وأجابتنى بقولها: "إنه عمل ممتع، وأقرب للقيام بالعمليات من كثير مما نعمله، ليس أفضل من الفتاة البحرية، ولكن أحسن من أن أكون مضيفة أو فى المطبخ، إنه يشبه المذياع أحيانا، ولكن عندما تصلح بندقية على سطح سفينة تشعر بأنك قدمت عملا مفيدا".

فسأل بيل: "وهل تجدن صعوبة فى التعامل مع المدافع الكبيرة".

فهزت رأسها: "لا، وهى فى حالة صيانة، فمدافع الميناء انحشرت مؤخرتها، مثلا، بعد عشرين عملية، وانتظرنا حتى بردت، وقمت بتنظيفها، وذهبت إلى نيلدز لتجربتها بنفسى".

ورحنا ندردش طوال فترة ما بعد الظهيرة، ونحن جالسون على العشب فى كيهافين. فقد رتبت مع السائق أن يأتى فى السادسة ليذهب بى إلى الفندق حيث سأتناول العشاء مع بعض الضباط لنتناقش فى بعض الأمور. فتحركنا فى الرابعة، بعد أن أحضرنا ديف من وجر أرانب بين الأحراش وقد تغطى أنفه بالوحل، ووضعناه فى القارب، وفككنا حبل القارب من الرصيف، وانطلقنا للمياه المفتوحة ثم إلى مساحات من الوحل وتوجهنا إلى نهر ليمنتوجن، ثم إلى المرسى.

ودعت جانيت برنتيس التى ستأخذ القارب وتعود به قبل أن تلتقى مع بيل فى المساء. صافحتها ونحن مازلنا على القارب قائلا لها: "كان يوما جميلا، لم أر مثله لعدة سنوات، فشكرا لك، وللقارب، وكل شىء".

فضحكت: "لقد صنعت القوارب لكى تستخدم، ولاسيما أيام الآحاد، كن حريصا فى طريق عودتك إلى لندن، ولا تصطدم بأى شىء، يا افندم".

فقلت ضاحكا: "سأعتبر، يا افندم، إهانة لى، بالنسبة للزى الذى أرتديه"، ولكن على أية حال قلت لها: "مع السلامة، يا جانيت".

استدارت بالقارب وابتعدت، وديف معها، واقف على مقدمة القارب، ناظرا إلى الأمام. أخذنا بيل وأنا ننظر إليها حتى غابت عن مدى البصر،

واتجهنا عبرالشارع الرئيسى إلى الفندق، وسألنى بيل: هممممم، ما رأيك؟

فقلت له: "إنك محظوظ".

- ولكن، رغم ذلك، ليست فى حكم المؤكد.

- لم تقل لها أى شىء؟

فقال: "إنها تعرف، لقد رتبنا أن نأخذ إجازة معا بعد انطلاق البالون، ونناقش أمورنا حينئذ، فكلانا فى جعبته الكثير نحو المستقبل". ثم ابتسم مضيفا: "ربما لا يكون هناك مستقبل، ولكن إذا كان، سنأخذ إجازة معا، هذا هو الموقف".

فقلت: "يبدو لى أن كل شىء على ما يرام".

فنظر إلى: "هل تعتقد أن يكون هناك ضجة فى المنزل".

فهززت رأسى: "لن يكون هناك أى ضجة، إنها ستروق لهم جدا".

كانت السيارة الخاصة بى فى انتظارى عند الفندق، والسائق جالس بداخلها. ودعت بيل على الرصيف قائلا له: "لست أدرى متى سنلتقى مرة أخرى، لن أستطيع أن آخذ يوما إجازة قبل انطلاق البالون، فى أى يوم بعد ذلك".

فابتسم: "أى يوم بعد ذلك سأكون فى إجازة".

فضحكت: "لن آتى، وأتلصص من ثقب الباب".

وبتلك الكلمات انتهى لقاؤنا، وسار نحو التل لكى يذهب ويلقى جانيت عند مرسى القوارب ويقضى معها المساء. وقفت ناظرا حتى غاب عن الأنظار، بينما كان السائق فى انتظارى. الآن أستطيع أن أراه.

أعتقد أنه بعد ذلك بعدة أيام جاءت طائرة جى يو فوق بيليو، لقد أخبرتنى فيول دوسون عن ذلك لما التقينا عام ١٩٥٠، وكذلك مای سبينكز حينما تناولنا الشاى معا فى هارلو. بعد ذلك كنت على اتصال مع توم بالانتين الذى كان معى فى قيادة المقاتلات، والذى كان عام ١٩٥١ كابتن مجموعة

تعمل فى وزارة الطيران، والذى ساعدنى جدا فى البحث فى السجلات فى مكتبه ومعرفة ما حدث تماما فى ذلك اليوم. ماحدث كان كالتالى:

فى صباح يوم السبت الأخير فى شهر أبريل، أرسلت إدارة الذخيرة فى ماستودون جانيت إلى النهر ومعها أربعة مدافع ستين وأربعة صناديق ذخيرة لسفن الإنزال. فكان المتوقع أنه بعد الإنزال الأول فى نورماندى سيحاول الألمان رد الهجوم واسترداد الشاطئ أثناء انحصار سفن الإنزال، فلذلك كان يجب تزويد السفن بأسلحة كافية.

يجب تزويد كل سفينة بمدفع وصندوق ذخيرة، كانت السفن مصطفة، وتقريبا نصف طاقم كل سفينة فى إجازة نهاية الأسبوع. أخذت فيولا جانيت حيث السفن المحاطة بمستنقعات المصب. تقدم الكابتن نحو الدرابزين، فخاطبته جانيت: "صباح الخير يا افندم، لدىّ مدفع، وصندوق ذخيرة لسفينتك، ولباقى السفن".

فقال: "صباح الخير يا جانيت، السفن الباقية بجوارى، مررى ذخيرتها لنا، سأرسل لك جندى يساعدك".. فجاء أحد الجنود وساعدها فى إنزال المدفع وصناديق الذخيرة على سطح سفينة الإنزال التى كان قائدها فى إجازة، فقابلها نائبه الملازم ثان، وكانت جانيت تعرف كيف تتعامل مع هؤلاء الضباط المترددين بسطاء المظهر، فقالت له: "يجب أن توقع على استمارة استلام تثبت أنك استلمت المدفع والذخيرة فى حالة جيدة"، وأخرجت من جيبها استمارة بمبى، وطلبت منه التوقيع، وتسجيل رقم السفينة، والتاريخ. ذهب الضابط لداخل السفينة ليحضر قلمه ويوقع، وفى تلك الأثناء التفتت إلى الكابتن: "لا أستطيع يا افندم أن أعطيك أكثر من صندوق واحد".

- غير كاف، ولكن أخبرينى إذا كان هناك فرصة للحصول على آخر.

فقالت: "سوف أفعل بالتأكيد"، وكان الإحساس بالحرب الوشيكة ثقيلا عليها، وكان غير مقبول بالنسبة لها لو أن أسلحة صالحة للاستعمال ظلت فى مخازنها عند انطلاق البالون، واستطردت: "نتوقع المزيد فى خلال أيام".

كان هناك صوت إطلاق نار من جزيرة صغيرة بين نيوتاون ويارموث، فالتفت الكابتن ليرى ما يحدث، وتلته جانيت. كانت هناك طائرة مقاتلة محلقة نحوهم، فى الساعة الحادية عشرة فى صباح ذلك اليوم المشرق، وكانت هناك سحابات من دخان من حولهم.

راحوا ينظرون غير مصدقين عيونهم، فقد مضت شهور دون أن يقوم الألمان بمثل ذلك الفعل، فصرخ الكابتن: "مقاتلة عدو!، الدفاع الجوى"، فخرج الجنود مهرولين على السطح، فنظر الجميع نحو المقاتلة، كانت على ارتفاع منخفض، وصاحت جانيت، صارخة من بطئهم: "إنها ألمانية، من الأفضل أن نستخدم المدافع".

فنظر إليها الضابط: "لا يمكن، فالمدفعجية فى إجازة"، فصاحت الفتاة: "يا إلهى!"، وانزلقت من على السور إلى السفينة الأخرى، وخلفها الكابتن: "وهو كذلك يا جانيت، تولى الجانب الأيسر وأنا سأتولى الأيمن".

شدت جانيت رافعة التصويب، وهيأت أسطوانة المدفع، ووضعت كتفيها فى الطارة، وسحب أحد الجنود على ظهرها السير، وجهت المدفع تجاه المقاتلة التى كانت تبتعد، وقالت: "هل كل شىء على ما يرام عندك يا افندم؟

فأجابها: "كل شىء تمام، ولكن أخشى أننا نفقده كهدف"، كانت المقاتلة تتجه غربا، وعلى متنها يظهر الصليب الأبيض، فسألت: "ما نوعها؟ فأجابها الكابتن: "يونكرز".

- ماذا يريد أن يفعل؟

- مسح المنطقة، إن أعصابه ميتة!.

راحت المقاتلة تحلق نحوهم من الشمال، وبدأت تطير تجاههم من ناحية الغرب، فقال الكابتن: "ستحجب مونكى أيلاند رؤيتى فى خلال دقيقة، فالأمر لك يا جانيت".

لم تكن المقاتلة يونكرز إلا على ارتفاع ألف قدم وكانت قادمة نحوهم بسرعة، كان وضعا مناسبا للتصويب وهى جالسة، لقد وضعتها فى مركز التصويب تماما، فلفت بجسمها ببطء، وراحت تنتظرها، وهى مستمتعة باللحظة. كان من المستحيل أن تفقد الهدف، كانت واثقة من نفسها. ضغطت على المدفع فانطلقت النيران بشكل منتظم، وأحاطتها هالة من الدخان الكثيف. فتطوحت بجسمها ببطء حتى أصبحت راكعة على ركبتيها، وهى ممسكة بالمدفع بقوة.

جراء إطلاقها للنار هبطت العجلات، وتحطمت مقدمة المقاتلة الزجاجية، وظهرت ثلاث نجمات داخل الكابينة بسرعة وعلى التوالى. وارتفعت فجأة، وحلقت بانحدار شديد نحو ماتسودون، وراحت النيران تنطلق عليها من على الشاطئ، فتوقفت فجأة ساقطة بدويّ فى حقل قرب المستنقعات، وانبعث منها لهيب شاهق، وسحابة سميكة من الدخان الأسود. وقفت جانيت مرتعدة وهى تحتضن المدفع، مذعورة من المنظر.

أخذ الرجال من حولها يصيحون ويهللون، وهى واقفة مندهشة، بينما يفكون من حولها السير، فهى لم تصدق ما حدث. صاح الكابتن من خلفها عرض رائع يا جانيت! أراهن بأنك البحرية الوحيدة التى فعلت ذلك"، فرد أحد الجنود: "هذه حقيقة يا افندم".

فقالت ببلاهة: "هل أنا فعلت ذلك؟ ألم يفعله أحد آخر؟"

- نعم أنت التى فعلت ذلك، فقد كان مدفعى محجوبا بالجسرعن الهدف، إنك أصبت كابينة الطيار بثلاث طلقات، لقد كان إنجازا مبهرا.

فقال أحد الجنود: "أربع طلقات يا افندم، لقد أصابته بأربع طلقات، لقد رأيتها".

لقد أصبحت مهتمة بتنظيف المدفع الذى استخدمته، فالجنديان القائمان عليه فى إجازة، فأخبرت الكابتن بأنها يجب أن تذهب لتقوم على تنظيف المدفع. أعتقد أن هذا يسمى فى علم النفس بالآلية الدفاعية، أو ما شابه، فقد اتجه عقلها للأعمال الروتينية بدلا من مواجهة الآثار المترتبة على ما فعلت. نادى الكابتن على أحد المدفعجية من سفينته وجعله يقوم على صيانة المدفع، فتركت المدفع لا إراديا وتوجهت معه إلى سطح السفينة. كانت فيولا داوسن، ودوريس سميث فى انتظارها لتهنئتها، وكان سيل من المديح يحيطها من الجنود. راح الكابتن ينظر إلى الحقل، حيث لازال الدخان يتصاعد، وقال: "سأذهب إلى هناك لكى ألقى نظرة، تحبين أن تأتى معى يا جانيت؟

تملكها نوع من الافتنان، إنها ترغب فى الذهاب، فقالت: "نعم، لو سمحت".

فتردد للحظة: "أتتخيلين كيف سيكون المنظر؟ هل تصرين على المجىء؟"

ـ أنا بخير يا افندم، لقد كنت فى الأسطول البحرى قبل أن يتم تجنيدى هنا. إنى أعرف كيف يكون منظر تحطيم الطائرات.

فشعر بالارتياح وقال: "إذن تعالى معى".

استقلوا القارب، وراحت فيولا تسير بالقارب بحذر شديد وببطء خلال المستنقعات حتى وصلوا إلى رصيف قديم مهجور، فترجلوا وساروا حتى موقع الحطام.

كانت اليونكرز قد اصطدمت بالأرض وغاصت ثم ارتدت على الأرض، وكان الجناحان منفصلين عن جسم الطائرة، واشتعلت فيهما النيران بسبب

تنك الوقود، وتناثرت أجزاء الطائرة على هيئة قطع من ألواح من سبائك ألومنيوم ونحاس لا تشبه جسم الطائرة بالمرة.

كان هناك مجموعة من الجنود يجمعون، بناء على توجيهات الضابط، أشلاء الصرعى ويضعونها تحت سياج من العشب. كانت الأجسام كلها مشوهة، وكان عددها كبيرا. وجد الملازم الأول طاقمين من البراشوت سليمين، ففكهما بإبزيم ليخرج القماش ويغطى به الأشلاء المشوهة. من الواضح أنه اعتاد أن يفعل ذلك من قبل.

ذهب إليه الكابتن وقال له: "هل يمكننا أن نأخذ نظرة، فهذه هى البحرية التى أسقطتها".

فقال الضابط الشاب بحدة: "كنت أتمنى لو أنها أسقطتها بعيدا عن هنا، فلا أستطيع أن أتركهم بلا غطاء".

- كم عددهم؟

- سبعة.

- سبعة! كنت أعتقد أن اليوكرز سعتها أربعة فقط.

- وأنا أيضا، اذهب وعدهم لو أحببت، من المؤكد أنهم كانوا يجلسون فوق أرجل بعض. لقد اتصلنا بالقوات الجوية الملكية، وسيكونون هنا بعد قليل.

تردد الكابتن، ولكن بدافع من الفضول القاتل ذهب إلى السور ليلقى نظرة، وتبعته جانيت. كانت الأجساد ممزقة، عبارة عن بقايا من أشلاء رجال، كلهم برتب ملازمين ونقباء، يرتدون الزى الأزرق للقوات الجوية الألمانية.

لقد رأت جانيت مثل هذا المنظر من قبل، فلذلك لم تتأثر، بل أخذت نظرة وذهبت بعيدا. لقد كان من الصعب بالنسبة لها أن تربط بين هذه الأشلاء البشعة ورجال أحياء. وأن تفكر فى أنها هى التى قتلتهم، ولكنها رأت كثيرا

من أصدقائها يقتلون بنفس الطريقة على يد الألمان. كانت تتمنى لو أن أحدا غيرها قام بإطلاق النار عليهم، ولكنها مع ذلك لم تشعر بالذنب.

عادت مع الكابتن، وأخذتهما فيولا إلى المقر. خط الكابتن رسالة طويلة لكى ترسل إلى مكتب قيادته، مع نسخة إلى ماتسودون، طالما جانيت كانت مشتركة فى العملية. استأنفت جانيت عملها فى توزيع الذخيرة، ثم ذهبت بعد ذلك إلى ماتسودون لتناول الغداء.

أثناء عمل جانيت فى المخزن بعد الغداء اتصل الضابط المسئول بها ليبلغها بأن الكابتن يريدها فى مكتبه. بعد عشرين دقيقة كانت فى مكتب الكابتن، وكان يجلس بجواره مسئول من القوات الجوية الملكية. قال لها ضابط البحرية: "البحرية جانيت برنتيس، أعلم أنك أسقطت مقاتلة ألمانية هذا الصباح".

فقالت: "صوبت نحوها يا افندم، وأيضا هناك من صوب عليها غيرى، فلا أدرى من أسقطها على وجه التحديد".

فقال: "الكابتن جريج أخبرنى بأنك أول من أسقطها. أخبرينى ما الذى جعلك تصوبين نحوها، فليس من مهامك التصويب على مقاتلة العدو، فأنت لست من المكلفين بهذا".

فقالت وقد أصابتها الدهشة: "لم يكن هناك مدفعجية، والإحتياطى لم يفعل شيئا. فكان من الصواب أن أى فرد يستخدم المدفع، أعتقد أنى طلبت من الكابتن جريج بعمل ذلك، لا أتذكر. فكل شىء حدث بمنتهى السرعة".

فقال: "أعرف". ثم توقف قليلا واستطرد: "يمكنك أن تستريحى يا برنتيس، اجلسى، الكابتن جريج قال إنك تصرفت بناء على أوامره، وبالتأكيد ليس له الحق فى إعطائك أى أوامر، فأنت لست تحت قيادته، ولست متدربة على العمليات أيضا، هل تعرفين ذلك؟

- نعم يا افندم.

فالتفت ضابط البحرية لضابط الجوية، والذى كان من المخابرات وهو يقول: "الخبر يقول إنه فور إطلاقك للنيران، أنزل طيار المقاتلة إطارات المقاتلة، هل رأيت ذلك؟"

فقالت مترددة: "أظن ذلك، نعم رأيتها".

- ألست متأكدة؟

فقالت: "أتذكر أنى رأيت الإطارت نازلة أثناء مرور المقاتلة نحو الشاطئ.

- وأطلقت النار على إطارات نازلة؟

- نعم يا افندم، رأيت الإطارات تنزل أثناء إطلاق النار، وأعتقد أنى كنت قد أطلقت مرة قبل إنزال الإطارات، لست متأكدة.

- وهل استمريت فى الإطلاق بعد أن رأيت ذلك؟

- نعم يا افندم.

- هل تعرفين معنى أن ينزل طيار إطارات مقاتلة؟

فتساءلت مترددة: "هل معنى ذلك أنها تستسلم؟

- هذا هو المعتاد، وفى هذه الحالة سيكون الحكم صعبا، أنا لا ألومك يا بحرية برنتيس، المفروض أنى أجمع الحقائق، سواء كانت المقاتلة تستسلم أم لا".

فقالت بنبرة تعيسة: "الكثير كانوا يطلقون عليها النار بعد أن أنزلت إطاراتها، وهى تمر من فوقنا".

- أعلم، ولسنا متأكدين إذا كنت أنت من أسقطتها أم لا. المشكلة أننا نعرف أن المقاتلة كانت تبحث عن ميناء لكى تهبط فيه بسلام.

فنظرت إلى ضابط المخابرات: "كيف ذلك يا افندم؟

فهز كتفيه: "كان فى المقاتلة سبعة أفراد، وسعتها أربعة فقط. إنهم جميعا بولنديون وتشيك، ولربما استولوا على المقاتلة ليهربوا بها، ويستسلموا".

فقال الكابتن: "لو صح ذلك، فهم جاءوا لمنطقة ملتهبة فى الساحل الجنوبى".

فقال الضابط: "ربما، ولكنهم لم يكونوا يعرفون ذلك، وإلا ما فعلوا ذلك، لربما كانوا يهربون من الألمان ولجأوا لنا"، والتفت لضابط البحرية: "هذا كل ما أردت أن أثبته فى التقرير، هل تم إنزال الإطارات قبل إطلاق النار أم بعده، أما بالنسبة للمقاتلة فلا تستدعى أن يشغل أحد باله بها، لربما كانت تحاول الهبوط، من يدرى؟

ـ أهناك أية أسئلة أخرى للبحرية برنتيس؟

ـ لا".

فالتفت الكابتن لجانيت قائلا: "حسنا، لن أقوم بأى إجراءات تأديبية يا بحرية برنتيس فى صدد مافعلته، ولكن احذرى فى المستقبل، فأنت غير مكلفة بإطلاق النار على مقاتلات العدو، وإلا تسببت فى أخطاء جسيمة. تذكرى ذلك، يمكنك أن تنصرفى".

عادت إلى سكنها، وغيرت ملابسها، فارتدت ملابس العمل، وهى تشعر بالإرهاق والكآبة. من الطبيعى أن تقابل بيل فى اليوم التالى، الأحد. أعتقد أنه أول إجازة نهاية أسبوع بعد رحلتنا لكيهافن، من المعتاد أنهما لا يعملان فى أيام الآحاد، وأنهما يتقابلان ويقضيان اليوم معا. ولكن فى هذا الأسبوع كان لدى بيل عمل، فقد أخطرها بذلك، وأخبرها بأنه سيقابلها فى أى مساء فى الأسبوع التالى عندما يرجع من مهمته. من المعلومات التى جمعتها فيما بعد، أعتقد أن تلك المهمة هى التى ذهب فيها بالغواصة إلى سانت مالو لمسح الشاطئ، وذلك قبل عملية اوفرلورد.

قضت جانيت نهاية الأسبوع تلك وحدها، تفكر فيما حدث، كانت حالتها سيئة جدا، كما أخبرتنى بذلك مای كونينجهام فيما بعد: "برغم كل ذلك فقد استقر فى ذهنها أنهم من صفنا، وأنها قتلتهم. لقد حاولت، وحاول الجميع إقناعها بأنها ليست الوحيدة التى أطلقت عليها النار، وربما لم تكن هى السبب فى إسقاطها، ولكنها أصرت على فهم أنها السبب. ولم تبك، فربما أفادها البكاء، ولكنها التزمت الصمت والهدوء، ومن المؤلم أن صديقها، أخاك، لم يكن موجودا، فلربما تكلمت معه".

أثناء البحث فى أوراقها، فى كومبارجانا، بعد تسع سنوات، وجدت خطابين كليهما بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٤٤، أحسب أن ذلك التاريخ هو يوم السبت الذى أسقطت فيه اليونكرز، وقد تسلمت الخطابين يوم الاثنين، بعد قضاء نهاية الأسبوع بمفردها. أحدهما كان من أمها، والآخر من أبيها. الخطاب الذى كان من أمها يقول:

ابنتى العزيزة

لقد ذهب والدك والسيد جريمستون، بالأمس ليثبتوا وجودهما فى مقر المراقبة المدنية فى لندن، ولكنهما لا يعرفان إلى أين بعد ذلك، غير أنهما سيتدربان لمدة أسبوع ولربما يرسلونهما إلى إحدى السفن بعد ذلك. إنى أشعر بالوحدة بدونه، وإن كان لدى الكثير لأقوم به. أظنه سيرسل لك بعدما يعرف إلى أين هو ذاهب. آه يا عزيزتى، لقد كان محبطا لأنه تطوع منذ ثلاثة أسابيع، والسيد جريمستون يوم السبت، وأنه أصغر من أبيك بعامين، ولكن جاء خطاب الاستدعاء يوم الأربعاء، وعرف أنه فى نفس مجموعة السيد جريمستون، شىء لطيف أنهما معا. لا أريد أن أفكر فيما يمكن أن يحدث . أتمنى أن يكون فى أمان فى انجلترا مثلك، ولكن الحرب بالطبع ستنتهى قبل وصول السفن التجارية، كما قال، وإنه يخشى ألا يجد ما يعمله. لكم أنا مسرورة لأنهم أخيرا قبلوه، لقد كان متضايقا من ذلك جدا.

يجب أن أتوقف الآن، فلدى بعض الفراولة من الجنينة، وبعض السكر لكى أصنع بعض المربى.

أمك العزيزة

بينما كنت جالسا فى غرفتى الهادئة فى كومبارجانا، بعيدا عن الحرب وعن الأقاويل التى عن الحرب، كنت أتساءل لماذا احتفظت بهذه الخطابات. لم يكن فى حقيبتها خطابات كثيرة، فهى لا تحتفظ بالخطابات غير المهمة بالنسبة لها. أعتقد أنها قرأت هذين الخطابين بتأثر بعد هذه الحادثة، وأظن أنهما تركا أثرا بالغا عليها، فلا ننسى بأن نجاحها فى إسقاط المقاتلة سبب لها تعبا نفسيا خطيرا؛ فكانت محبطة، ومقتنعة بأنها ارتكبت خطأ مروعا. والآن تأتيها هذه الأخبار، فأبوها عمل ما يريد، ابوها الذى لا يستطيع أن يقرأ بدون نظارته، والذى شعره المنكوش الرمادى لا يخفى إلا القليل من رأسه الأصلع. الرجل العجوز الذى أعطى فى الحرب كل ما يمتلك لفيلق المراقبة الملكية. لم يزل الأب شابا فى القلب مثله مثل أى كابتن خدمت معه، لقد فرض نفسه على الحفل وسيذهب إلى أوفرلورد.

أعتقد أن هذا الخطاب هو الذى جعلها منكسرة، وأحسب أنها احتفظت به لهذا السبب. أما الخطاب الثانى فكان من أبيها، وأظن أنها احتفظت به لسبب آخر.

عزيزتى جانيت

لقد كتبت لك ماما فى هذا التوقيت وأخبرتك بأنى تطوعت للخدمة لمدة شهرين فى السفن التجارية كمحدد للمقاتلات. إننا الآن فى فندق رويال فى بورنماوث، ليس بعيدا عنك، وسأظل هنا لغاية مساء يوم الجمعة. إنى لا أستطيع أن أتحرك من هنا فهناك أحاديث ومحاضرات وتدريب على التحديد من ساعة مبكرة فى الصباح حتى الساعة السادسة ونصف مساء. ولكن هل يمكنك أن تأتى إلىّ ونتناول العشاء معا فى صالة الطعام؟ سأعد لك سيارة

تعود بك إلى ماستودون، المسافة لا تتعدى ثلاثين ميلا، تعالى إذا كان فى إمكانك.

إنى سعيد لالتحاقى بهذه المهمة، فلقد فاتتنى فى الحرب السابقة. كنت خائفا أن أكون أكبر من اللازم، ولكن هناك كثير أكبر منى فى هذه الخدمة.

بعد أسبوع سنغادر لكى نلتحق بسفينة، ولن تكون هناك إجازات. إننا قريبون منك، فتعالى إذا سمحوا لك.

والدك

لقد ذهبت إلى بورنماوث لترى أباها فى أحد أيام ذلك الأسبوع، تركت الزيارة انطباعا عميقا لديها، إذ صرفت ذهنها عن التفكير فى مشاكلها الشخصية. فراحت تتحدث إلى فيولا وماى عن فندق رويال، كما أخبرتانى بذلك بعد مرور ست سنين من هذه الواقعة وحكتا لى ما كانتا تتذكرانه. عندما ذهبت إلى إكسفورد بعد الحرب بحثا عن جانيت برنتيس وجدت السيد جريمستون، كان يدير سلسلة من محلات البقالة فى كولى، وتذكر زيارتها لفندق رويال ومقابلتها مع أبيها، فقد قضى حوالى ربع ساعة معهما. أخبرنى بما حدث فى الفندق فى تلك الزيارة. اثناء سفرى للساحل الجنوبى عام ١٩٥٢ قمت بزيارة سريعة للفندق وتناولت فيه وجبة، كان الفندق مختلفا، ولم يذكرنى بشىء عن جانيت برنتيس.

وصلت إلى الفندق الساعة السادسة مساء. وجدته مكانا شاسعا وفخما بحدائق معتنى بها تطل على البحر، فى موقع فى وسط المدينة. لقد اختفت السيدات الكبار فى السن، والأناس الأغنياء، وتغير معظم الأثاث، وحل الرجال المسنون، وأولاد المدارس فى الزى الأزرق الفاتح الخاص بالبحرية الملكية.

كان أبوها فى البهو، وجاء مرحبا بها وكأنه شاب. قبلته، وتراجع للخلف لكى تنظر إليه، لقد بدا لها وكأنه أصغر من آخر مرة رأته فيها بعشرين

سنة، لا يمكن تعطيه أكثر من أربعين عاما. كان يرتدى الزى الأزرق الذى تعرفه، ولكن على كتفيه كتافة مكتوب عليها محمول على البحر، وعلى ذراعه شارة مكتوب عليها ممرض معتمد. لم يعد أباها الذى اعتادت عليه، فالرجل المسكين فى إكسفورد وقد أنهكه العمل المجهد. كان حاد البصر، قائد ثقة.

قالت له: "بابا، إنك تبدو رائعا، هل أنت مسرور لأنك هنا؟

فضحك: "إنه عمل مضنى، لم يمر علينا أسبوع هنا، وهناك الكثير لنتعلمه".

فسألت باستغراب: "لماذا اختاروا هذا المكان؟"

- إنه قريب من الغزو، إنه مقرنا الدائم، فلو أن سفينة غرقت نستطيع الصعود لأية سفينة والحضور فورا لاتخاذ اللازم.

لقد وجدت أنه كان يقدر كضابط صف فى البحرية. ذهبت لتتناول العشاء معه فى المطعم، بين مائتى رجل، كانت هى البنت الوحيدة، وكانوا جميعا فوق الخمسين.

كان يجلس بجوارها على طاولة الطعام رجل أصلع هو صاحب فندق صيفى فى أسكتلندا، فقال لها: "كان هناك أربعة منا، فاهمة؟ كلنا فى فيلق المراقبة: أنا والطباخ والجرسون والشيال، لما رأيت الإعلان تقدمت فورا، وأغلقت الفندق وطردت العمال، وجئت إلى هنا وهم معى".

كانت تريد أن تتحدث مع أبيها عن اليونكرز، أن تفرغ بعضا من همها الذى كانت فيه. أخذت تفكر فى نفسها إذا كان هناك اختراق للأمن إذا تحدثت عما حدث، وقررت سرا أن يذهب الأمن للجحيم. وجدت الفرصة عند المساء. كان والدها مسرورا ومبتهجا لالتحاقه بالفيلق، وكان كل تفكيره فى عملية تحديد المقاتلات، قال لها بفخر: "لقد حصلت اليوم على ٩٦ ٪ فى اختبار التحديد، إذ أخفقت فى معرفة واحدة فقط، لم يتعرف عليها غير اثنين فقط".

فقالت: "شيء عظيم، هل تفعل ذلك يوميا يا أبى؟

- لا، لدينا محاضرات فى فن الملاحة صباحا.

كان هناك قائد ملازم من احتياطى البحرية الملكية قضى طوال حياته فى البحرية التجارية أخذهم كمجموعة وبدأ يدربهم على رمى وتجهيز المراجيح الشبكية، ويدربهم على تسلق الحبال على جدار منزل تقليدا لجانب السفينة. كان لديه حس الفكاهة وكان يتخلل دروسه قصص مروعة عن الطعام السيء والقادة المزعجين فى السفن التجارية، غارسا فى أذهانهم بمهارة الجوانب السيئة من البحرية خلال ضحكات عالية. كان يعرفهم كل أجزاء السفينة وكل نقاط التحميل والاتجاهات حتى إنهم كادوا يصيحون". مقاتلة عدوعلى سطح السفينة". فتسمع على بعد نصف مدينة بورنماوث.

كان ذهن أبيها مشغولا تماما بهذه الأشياء، فلا يهتم بصغائر الأمور سواء فى البيت أو العمل، لقد تخلص من كل الهموم الحياتية العامة. لقد وضع كل ذلك جانبا واتجه للحرب بقلب تملؤه البهجة، ومعه مائتا رجل من نفس سنه تقريبا. لم تر جانيت طوال حياتها فى البحرية مثل هذه الروح المعنوية التى رأتها فى فندق رويال فى تلك الليلة. إنها روح دونكرك عادت مرة أخرى، التى تنحت عن كل مصلحة شخصية، وكل العلاقات المادية، ولم تفكر إلا فى متابعة الحرب. هذه الروح التى تفتحت فى إنجلترا لعدة شهور عام ١٩٤٠، وها هى تتفتح مرة أخرى عام ١٩٤٤ فى فندق رويال.

قال لها والدها: "أحاول أن أحصل على سفينة نقل بمحرك، إنها تذهب مبكرا جدا، أعتقد أنها تصل هناك فى مساء يوم ساعة الصفر، أو بعدها بيوم فى أقصى تقدير".

كان يستمع لها وهو شارد عندما أخبرته عن عملها، لقد كان منهمكا فى شئونه الخاصة بعمله. جلسا معا فى الردهة بعد تناول العشاء، على كراسى خشبية صلدة، وظهر فى الفناء الخارجى ملازم من. حرس البيت. المحلى

وهى يحمل بندقية لويس. التف حوله مجموعة من الرجال، سواء جالسين أو واقفين، وهو يشرح لهم تركيب البندقية. قال لجانيت: "يجب أن أذهب معهم، وإن كنت أعتقد أن ذلك لا يهم".

- إذا أردت أن تذهب يا بابا فأنا لا أمانع، إنى أعرف البندقية لويس العادية، ولكن ليس لدى فكرة عن المزودة بمدخنة فوق الماسورة، يمكننى أن أذهب معك لأتعرف عليها إذا لم يكن ذلك ممنوعا.

فقال متحمسا: "لا، لن يمانعوا، فكلهم يعرف أنك بحرية، ويمكنك أيضا أن تحدثينا عن مدافع أورليكون إن لم يكن لديك تحفظ"، وهكذا ذهبا معا وجلسا ليستمعا إلى الضابط وهو يشرح كل جزء فى البندقية وهو يمررها عليهم.

لم ترغب فى أن تشغله بمشاكلها، فليس لديه ما يساعدها، إلا أنه سيحزن ويفقد بهجته. لقد هجر كل اهتمامته الشخصية وتركها لزوجته فى إكسفورد. لقد كان مكرسا ذهنيا للحرب، فما كان له أن يقابل أمها حتى يؤدى ما بوسعه وتنتهى عملية أوفرلورد. فلم تشأ أن تقاطعه وتحمله همومها، فلن يكون ذلك من العدل.

- سيدربوننا غدا على الإسعافات الأولية، فلا يوجد أطباء فى السفن التجارية، والكابتن لا يعرف إلا القليل، وسيكون مشغولا جدا. لذلك سيدرسون لنا على عجالة بعض الأساسيات، فهناك الكثير ولكن لا وقت لدينا"..

جاءت السيارة فى تمام العاشرة، فوقف أمام الفندق لكى يودعها، وقال لها: "لو كتبت لأمك أخبريها أنى بخير، كنت مضطرا لتركها، فما كان لى أن أفوّت هذه المرة".

فقالت ضاحكة: "طبعا يا أبى، ماما ستكون بخير، سأكتب لها غدا وأخبرها بأنك تمام التمام، وأنك مستمتع بحياتك".

فقال: "عارفة، أنا فعلا مبسوط، فبعد هذه السنين فى التعامل مع الأفكار يجد المرء شيئا فعليا يتعامل معه، شيئا محددا".

فقالت: "أنت لا تريد أن تعود إلى إكسفورد مرة أخرى".

فرد: "أوه، سأعود، فإكسفورد هى التى عملت بها طويلا، عملا قيما، سأكون سعيدا إذا رجعت إليها، لو عادت تلك الأيام".

ـ انظر لها كما تنظر لزهرة بين دفتى كتاب.

ـ نعم هى كذلك، زهرة فى كتاب.

ودعت أباها بقبلة، واستقلت السيارة، التى أقلتها إلى ليمنجتون، حيث أزمة الوقود حددت مسافات السيارات الأجرة حتى ثمانية أميال، ومن هناك استقلت المعدية الأخيرة إلى ماستودون، ثم إلى المقر بشاحنة. وشعرت بالارتياح لأنها لم تخبر أباها باليونكرز، كما أبلغت فيولا بذلك، وكانت تتطلع أن تقص كل ذلك على بيل.

فى الحقيقة لا أعتقد أنها فعلت ذلك، فبيل عاد من مهمته ليلقى مهمة أخرى، فإذا كانت قابلته فلم تقابله إلا وسط الأسبوع فى العمل، لأن بيل بعد ذلك بفترة يسيرة لقى حتفه غريقا فى نورماندى، قبل تنفيذ عملية أوفرلورد بشهر.

الفصل الخامس

لم أعرف أى شىء عما حدث لبيل قبل عودتى إلى إنجلترا عام ١٩٤٨، فقد وصلنى تليغراف من الأدميرالية: "بكل الأسف..."، ولأنى كنت القريب الأقرب لبيل فى إنجلترا ذهبت لأعرف ما حدث، ولكن توقفت أمام جدار صلب من الأمن، إذ أبلغونى أنه لا يمكننى أن أعرف شيئا عن ذلك قبل انتهاء الحرب. ولم تكن الأخبار مفاجئة بالنسبة لى، فآخر مرة كنت أشعر بمدى الإجهاد الذى كان فيه، وأنهم كلفوه بمهمة أخرى قبل عملية أوفرلورد بأسابيع، وحدث ما حدث.

إنه أخى الوحيد ولشدة ما أشعر بافتقاده.

لما انتهت الحرب كنت لا أزال فى المستشفى، فتركت إنجلترا إلى استراليا عام ١٩٤٦ قبل أن أسترد عافيتى وأستطيع التحرك بنفسى.

كنت قد كتبت لوالدى خطابات متحفظة عن مصرع بيل، لأن القليل الذى عرفته كان لايزال يعتبر أسرارا عظمى. لم أذكر شيئا له عن جانيت

برنتيس، فبيل، كما اعتقدت، لم يذكر لهما عنها شيئا، وفضلت ألا أذكر عنها أى شىء.

كانت نيتى أن أتصل بجانيت مباشرة بعد انتهاء أوفرلورد، فأذهب إليها وأراها، ولكن لم أستطع أن آخذ أى إجازة إذا كنت فى مهام متتالية إلى فرنسا. لقد أرسلت لها خطاباً بعد ذلك، ولكن لم أتلق أى رد، وعرفت فيما بعد أنها فى تلك الفترة كانت قد تركت البحرية. وبعد ذلك مباشرة جاءنى أمر بالتحرك بسربى، الأمر الذى شغلنى عنها.

فى عام ١٩٥١ قابلت ضابط الصف فينتش، وأخبرنى بما حدث لبيل. وكانت روايته صحيحة تماما لأنه كان مع بيل لعدة دقائق قبل غرقه. أخبرنى أنه دائما كان مع بيل فى مهامه، فمن المعتاد الإبقاء على الزملاء المتفاهمين فى عملهم. وأبلغنى بأنهما كانا فى ليتراج، وهى مكان ساحلى فى نورماندى، وكانت مسرح إنزال القوات البريطانية والكندية. كان هناك نهر صغير مزود ببوابة حديدية لتنظيم المياه وقت الجزر، وكان يستخدم كمنفذ للمحاصيل الزراعية من المدينة إلى البحر. كانت المهمة هى تأمين البوابة عند غزو نورماندى، حتى يتسنى إمداد القوات بالمؤن، بزوارق منخفضة الغاطس.

كان الألمان على علم بهذه البوابات، وقد أخبرتنا المخابرات الفرنسية أن الألمان قاموا بتلغيم البوابات تحت الماء، وأنهم سيفجرونها عن طريق الكهرباء من أحد المساكن القريبة. وكان المطلوب هو إبطال هذه الألغام عن طريق الغوص تحت الماء وصولا للبوابة.

لإبطال الألغام كان لا بد من القيام بمهمة صغيرة قبل ذلك، وهى التعامل مع الأسلاك الكهربية التى تحت الماء دون قطعها إذ إنها تختبر يوميا فأى قطع سيتم اكتشافه وإصلاحه. فلا بد أن نركب جهازا صغيرا جدا يستقبل الكهرباء بدلا من الألغام فإذا ما تم تشغيله لا يصل إلى الألغام، وفى الوقت

نفسه لا يتم اكتشاف أن الألغام غير موصلة بالكهرباء. وكان لا بد ألا يكتشف الألمان هذه الآلة الصغيرة.

تركيب هذا الجهاز كان يستغرق عشر دقائق لكل لغم، واقتراح أن من يقوم بهذه المهمة هم الضفادع البشرية كان صاحبه بيل، حيث أن معرفتهم بهذه المنطقة جيدة جدا.

تمت مناقشة الخطة من كل جوانبها وتقرر القيام بها قبل أوفرلورد بأكثر من شهر خشية أن يتم اكتشافها فيكون هناك البديل. وكما أخبرنى فينتش أنهم تدربوا على العملية لعدة أيام على ألغام ألمانية كانت فى حوزتهم، وعلى نفس الظروف المحيطة بها.

انطلق بيل وفينتش فى زورق جلدى صغير فى منتصف الليل، وكانت الليلة هادئة، عكس ما كانا يتمنيان، فالرياح والمد والاضطراب كان فى الصالح لأداء المهمة، ولكنهما رغم ذلك أصرا على تنفيذ المهمة. كانت الخطة أن يغوص بيل أولا ثم يتبعه فينتش بعد خمس دقائق، أما إذا تم اكتشاف بيل أو حدث إطلاق نار فعلى فينتش أن يتصرف حسب رؤيته للموقف، أما إذا ما واجه بيل أية مشكلة تحت الماء فعليه أن يرجع ويتشاور مع فينتش. ضبط كل منهما الوقت على الآخر وغطس بيل أولا، ثم تلاه فينتش، نحو البوابة، وأثناء ذلك شنت غارة جوية فتوقفا حتى انتهت. واتجه بيل لأداء المهمة ثم عاد وقد أنجزها بنجاح، ولكنه همس لفينتش بأن أنبوبة الأكسجين أوشكت أن تنتهى نظرا للوقت الذى استغرقه حتى انتهت الغارة، وكان لدى فينتش مزيد من الأكسجين ولكن ليس هناك وسيلة لنقل الهواء من أنبوبة لأخرى. قررا أن يسبح بيل على السطح أكبر مسافة ممكنة متفاديا الحراسة الموجودة من قبل الألمان ثم يغطس بعد ذلك فى الوقت الذى لا بد فيه من الغطس. كان اتفاقهما أن يلتقيا عند الزورق. كانت تلك آخر مرة رأى فينتش فيها بيل، إذ بعدما سبح بيل ثم تلاه فينتش بدأ إطلاق نار

عليهما من الشاطئ. فاستطاع فينتش أن يغوص تحت الماء، ولكنه لم يهتد إلى الزورق إذا غاص بلا هدى حتى نفد الأكسجين فسبح حتى وجد نفسه فى مكان بعيد ولكنه بقرب ساحل المدينة فرأى زورق الإنقاذ الذى كان على قربه فأعطاه إشارة فجاء وأخذه. ولكن انطلقت النيران على الزورق مما استدعى الإبحار بعيدا غير مستطيعين أن يبحثوا عن بيل.

بعد عشرة أيام وجد الألمان جثة بيل طافية فأخذوها وفحصوها، كما ذكرت المخابرات، وكانت هناك رصاصة فى كتف بيل، ولكن الوفاة كانت بسبب الغرق، ودفنوا جثته فى مكان يدعى كين، حاولت أن أجد مقبرة بيل بعد أن استولينا على كين فيما بعد، ولكن لا جدوى.

فى مقابلتى لفينتش أخبرنى بأنه أرسل خطابا لجانيت برنتيس ليبلغها بوفاة بيل، وأنه أخذ معه الكلب ديف إلى ماستودون. لقد وجدت هذا الخطاب فى حقيبة جانيت، فى كومبارجانا، أما الكلب ديف فقد أخبرتنى فيولا عما حدث له فيما بعد. كان الخطاب يقول:

عزيزتى الآنسة برنتيس

لست أدرى إذا كنت ستتذكرينى أم لا، فأنا كنت مع بيل يوم غرق الدبابة. يؤسفنى أن أبلغك أنباء سيئة وهى أننى كنت فى مهمة مع بيل، ولكنه لم يعد معنا، لقد لقىّ مصرعه. وليس مسموحاً لى أن أقول أكثر من ذلك، ستقدرين ذلك. آسف أن أبلغك بمثل هذا الخبر. أخذت الكلب ديف، ولعلمى أنك كنت تريدينه، والكابتن أشار بأننا نطلق عليه الرصاص، فسنضطر أن نفعل ذلك إذا لم يكن لديك الرغبة فى أن تأخذيه، أما إذا أردت أن تأخذيه فسآتى به إليك.

آسف لهذه الأنباء السيئة ولكن كان لا بد من إبلاغك لعلمى بمدى علاقتك ببيل.

مع فائق التقدير
ألبرت فينتش

أخبرتنى فيولا بأن جانيت أعطتها الخطاب بعد نصف ساعة من وصوله لكى تقرأه، إنهما كانتا صديقتين حميمتين. قالت لى إن جانيت لم تدمع لها عين، وكانت متماسكة. ولم تتذكر فيولا أنها بكت، لأن ذلك أقلقها قليلا، وإن كانت فسرت ذلك لنفسها بأنها رأت موتا كثيرا فى البحرية فلم تعد تشعر بصدمته. لما أعادت فيولا لها الخطاب أخذت تقلبه فى يديها وتنظر فيه بصمت، ثم قالت لفيولا إن كل شىء انتهى، وأنها لن تفكر فى الزواج من أى شخص. تمنت فيولا لو أنها تبكى فقد يفيدها البكاء.

قامت جانيت فى الحال وسارت من مسكنها إلى جناح الضباط وطلبت من الخدمة أن ترى القائد كولينز، فخرجت كولينز، وكانت بالكاد تكبر جانيت، وتقريبا كانت من نفس الطبقة الاجتماعية، فقالت جانيت: "هل يمكن أن أكلمك على انفراد؟

ـ طبعا.

اصطحبتها إلى المكتب، وكان خاليا، وسألتها: "ما الخبر يا برنتيس؟

فأعطتها الخطاب وقالت: "لقد تسلمته، وهو عن صديق لى".

فقرأت الضابط الخطاب بسرعة: "أوه، يا عزيزتى، آسفة لهذا، هل تريدين إجازة خاصة؟

فهزت رأسها بالنفى: "لا، أفضل أن أستمر هنا، فليس هناك من آخذ الإجازة من أجله، فهو من أستراليا ولا أعرف أهله، فقط أعرفه هو، ولكن ما أردتك من أجله هو الكلب".

فأعادت الضابط كولينز قراءة الفقرة الأخيرة من الخطاب: "أرى"، كان الأمر أصعب من إجازة خاصة، فاستطردت". هل تقصدين أنك تريدين أن تأتى بالكلب هنا؟

ـ وهل هناك ما يمنع؟ سأضعه فى مكان بعيد.

ترددت ضابط البحرية، فلم تشأ أن تضيف همّا فوق ما هى فيه تلك الفتاة التى أمامها، فقالت: "لا أعتقد أن الكابتن سيوافق يا برنتيس. فالضابط ثان طلبت قبل ذلك أن تأتى بكلبها هنا ولكن الكابتن رفض، إنه يرفض أى كلاب فى السفينة، وكما تعلمين لو أنه سمح لواحد فسيسمح للجميع".

فقالت جانيت: "هل معنى ذلك أنه يجب أن يطلق عليه الرصاص؟

- أنا ما اقصده أنك لا يمكن أن تحضريه هنا، ولكن خذى إجازة خاصة وخذيه معك واتركيه مع أى أحد من أهلك.

- لن أستطيع، فأبى فى الفيلق البحرى، وأمى لا تقدر على التعامل معه، بالإضافة لأشياء كثيرة تقوم بعملها، سأرسل لفينتش، لن ينفع أن آخذه، شكرا يا افندم.

عادت الضابط ثالث كولينز إلى جناح الضباط، وهى قلقة ومكتئبة، كان الضابط باركس، ضابط الخدمة، يقرأ فى مجلة". للرجال فقط". فوقفت بجوار كرسيه، وقالت: "كنت أتحدث توا مع البحرية برنتيس، لقد لقى صديقها مصرعه".

فنظر إليها الضابط البحرى الذى اعتاد أن يصطحبها من هنا، لكم أنا آسف لذلك، كيف حدث ذلك؟

- لم يخبروها، لقد تلقت خطابا من زميله فينتش.

ذهب تفكيره للعمل فقال: هل معنى ذلك أنها تريد إجازة خاصة؟

- لا، لا تريد ذلك، وراحت كولينز تخبره عن موضوع الكلب.

فغضب الضابط باركس: "لم أسمع من قبل عن هذه التفاهات، فهناك أماكن كثيرة لإيواء الكلاب، ولاسيما خلف الإسطبلات".

فقالت: "الكابتن لم يكن على علم بها عندما طلبت الضابط فوستر أن تحضر كلبها".

فنهض من على كرسيه: "ولن يسمع بها الآن".

كانت المساحات الشاسعة التى يقام فيها المعسكر مؤجرة من طرف معين مقابل أجر رمزى، وكان العقد ينص على أن صاحب المزرعة من حقه إدارة المزرعة ليحافظ عليها بشروط محددة. كان الضابط باركس على علاقة طيبة بالسيد آلكستر صاحب المزرعة، نتيجة التعامل المشترك فى التبغ الخاص بالبحرية.

خرج وهو ساخط من جناح الضباط إلى المزرعة، ثم إلى مقر البحرية . قابل بحرية كانت تمر وقال لها: " بلغى البحرية برنتيس أن تخرج لى، من فضلك، أريد أن أتحدث معها".

عندما جاءت أصابته الدهشة من الصرامة التى على وجهها، وقال لها: "لقد أخبرتنى الضابط كولينز بأنك ترغبين فى إحضار كلب هنا".

- ولكن لن يفيد، فالكابتن لن يوافق.

فرد عليها: "لا، ولن يوافق، ولكنى تكلمت توا مع السيد آلكستر، مدير المزرعة، فهو يريد كلبا للحراسة، فبعض الجنود يسرقون بعض الأشياء. أخبرته بأنى أعرف كلبا ينفع للحراسة، وطلبت من جنديين أن يجهزا مكانا سريعا للكلب. والكابتن لا يستطيع أن يتدخل فى ذلك، فمدير المزرعة حر فى حراسة مزرعته. على شرط أن يكون الكلب ملكا للمزرعة، فطلبت من آلكستر أن يقول بأن الكلب ملك له".

فنظر إلى الفتاة التى أمامه وابتسم، ولكن أزعجه أن يرى دمعة قد انسابت على خدها وهى تغمغم: "شكرا لك يا افندم".

فقال لكى ينهى الحديث بسرعة: "أرسليه غدا إلى منزل آلكستر، هل تعرفين مكانه؟، وخلى آلكستر يحضره إلى هنا، لا تحضريه أنت. إنه سيؤكد بأنه كلبه"، ثم انصرف وهو يقول: "آسف بشدة".

حينما قابلت فيولا فيما بعد أخبرتنى عن الكلب كثيرا، فقد قالت لى: "إنها كانت مهووسة به، فكانت تقضى كل دقيقة تتاح لها معه، إنه كان متنفسا لها بعد وفاة أخيك، لربما كان هذا يريحها".

أخذ الضابط فينتش ديف إلى منزل آلكستر، ولم يقابل جانيت، ولم يرغب فى ذلك فقد قال لى: "لم أشأ أن أتكلم عن أخيك، فالتزام الصمت أفضل طالما لا تجد ما تقوله، علاوة على أنى لم أكن أعرفها جيدا. فقط سلمت الكلب، والخطابات الخاصة ببيل التى طلبتها منى، وانصرفت".

فى خلال ساعة اكتشفت جانيت وجود ديف فى مكانه، فانتفض إليها لما رآها، وراح يتشمم وجهها. الكل كان يعرف حقيقة الكلب، وكان يتعاطف معها لأنهم يحبونها، ومشفقون عليها. وكان الطباخون فى السفينة يعطون جانيت بقايا الطعام اللازمة لكلبها.

لقد وجده الكابتن، وهو ضابط متقاعد تم استدعاؤه، بعد ثلاثة أيام فتساءل عنه، فأخبره القائم على المزرعة بخطبة مطولة ولهجة أسكتلندية متذمرة بأن الجنود يسرقون الزهور التى هى لزينة الأجنحة لكى يهدوها لصديقاتهم، فاضطر السيد آلكستر أن يحضر كلبه للحراسة. اضطر الكابتن أن ينصرف تحاشيا للتذمر الذى يدوى فى أذنيه، وهكذا أصبح ديف جزءا من ماستودون.

لم يقم ديف بالحراسة قط، فقد كان ينام بعمق فى وجاره. وكانت جانيت تقضى معه معظم الأوقات، فكانت تأخذه احيانا فى جولات حول الرصيف القديم.

شهد الشهر الأخير تحولات كبيرة حول بيليو، وأنشطة مكثفة فى كل المجالات. العمال يمهدون الطرق ويوسعونها بالآلات، ويزيلون أسوار الشجر، ويضعونها جانبا. ويجهزون فى كل مائتى متر تقريبا مكانا لوقوف الدبابات. ومهابط للطائرات ممهدة بخيش وصلب ظهر بين عشية وضحاها

بكميات مهولة. وظهرت الدبابات الأمريكية وهى تتحرك فى كل اتجاه، والناقلات وفى السماء تحلق الطائرات فى تشكيلات مختلفة.

صارت الغابات مستودعات للذخيرة، وأماكن وقوف للدبابات والحوافل. بالإضافة إلى مضادات للطائرات متحركة. ولكن لم تظهر أى مقاتلة ألمانية منذ أن أسقطت جانيت إحداها.

لقد اكتظ الميناء بسفن الإنزال، فلقد أخبرتنى فيولا بأن أكثر من سبعين سفينة كانت على الميناء. كان العمل على قدم وساق، ومع طول اليوم فى الصيف كانت الفتيات يعملن من الفجر حتى الغروب، حوالى سبع عشرة ساعة وأكثر. كانت السفن تفرغ الذخيرة والمدافع المتحركة، وتنطلق بين الفينة والأخرى بعيدا للتدريب لمدة يومين أو ثلاثة، لتغتال الهدوء والسكينة بالقنابل والصواريخ فى المناطق التى تغزوها.

الشمس فى مايو أكثر إشراقا، والأرض أكثر صلابة بعد المطر. والعارفون يهمسون باقتراب انطلاق البالون، وما من أحد يهمس بكلمة غزو، ولكن يهمسون باقتراب عملية أوفرلورد سرا.

فى الأسبوعين الأخيرين كان العمل على أشده لدرجة أن الفتيات البحريات لم يعد لديهن وقت فراغ، وكان التوتر شديدا. وكانت الطرق على اليابسة مكتظة بالمعدات، والمعسكرات المؤقتة فى كل مكان، ومهابط الطائرات مملوءة بالمقاتلات المتفرقة هنا وهناك، وأشكال مهولة تطفو فى البحر.

كانت جانيت تقضى معظم وقتها فى ليبهارد على بعد ميلين من ماتسودون، فالتدريب قد انتهى، والسفن على قدم وساق فى الشحن والتفريغ. وكان عليها أن تكون هناك أثناء ذلك، وأن تكون على سطح السفن حينما تأتى من فرنسا لكى تحمل المعدات، وتتفحص الذخائر، وتقوم على تنظيف المدافع ومعرفة المطلوب للسفينة أثناء تحميلها، وقبل انطلاقها من

الميناء إلى فرنسا مرة أخرى. ولكى تقوم بكل هذه المهام فى ذلك الوقت القصير كان لا بد لها من تدريب وتمرين مستمر.

كان جميع القادة يعرفونها، فلقد قالت لى فيولا: "إنهم يعرفون أنها فقدت صديقها، ورغم ذلك تعمل بنفس الكفاءة، ولذلك كانوا يحبونها"، كانت تشرح للجنود الجدد ما علاقة ألوان المدافع، وكيفية عملها، وهى جالسة على السطح مشمرة أكمامها، ويداها غائصتان فى الشحم.

أخبرتنى فيولا أنها سألت جانيت مرة عن أبيها قائلة: "هل أبوك سيلتحق بمجموعة فعلا؟

فقالت: "لقد وصلنى منه خطاب يفيد بأنه انتهى من التدريب وأنه التحق بسفينة، ولكن لم يذكر اسمها، أعتقد غير مسموح له بذلك".

- عظيم، تقولين كم عمره؟

- أربعة وستون، إنه يلقى محاضرات للجنود، لقد جعلهم يستطيعون أن يحددوا نوع أى مقاتلة تحلق فوقهم.

فى نهاية شهر مايو انتقلت جانيت إلى هاردماستر، على بعد ميلين من ماتسودون، فكانت تذهب يوميا إلى هناك، وكانت تتحرك بحرية فى زورق حربى لتكتب تقارير ترفعها للقيادة.

فى الثالث من يونيه أبحرت كل السفن من بيليو إلى سولنت، وكانت تصطف فى أزواج تحمل الدبابات وبقية المعدات، وكانت جانيت تنتقل من سفينة إلى أخرى. واستعدت كل أطقم السفن للمعركة، وقد انتهى وقت الخوف من عدم الصيانة أو العجز فى الذخيرة والمعدات، فكانت تعطيهم ما يريدون بلا أوراق أو طلبات.

سفن الإمداد تغدو وتروح بالمؤن، وكانت جانيت تعمل بجد ونشاط من مركب قاطرة إلى سفينة إمداد من الصباح حتى المساء. بل امتد العمل دون أى راحة فى أى وقت، إلى أن شعرت بالإعياء عند منتصف الليل، ولكنها لم

تستطع الراحة، فالعمل على أشده، والأضواء الغامرة تغطى سماء الميناء حتى تحجب الرؤية عن أى مقاتلة ألمانية قد تخترق الأجواء، حتى جاءت الساعة الثانية صباحا فوجدت نفسها تغفو على كومة من الشباك، واستيقظت فى الساعة الخامسة لتستأنف العمل فى الرصيف، حتى جاءت الساعة السادسة صباحا فراحت لمكان نومها لتأخذ قسطا من الراحة.

استيقظت جانيت وفيولا فى الساعة العاشرة، كان الجو خارج السكن غير مستقر، فالسماء ملبدة بالغيوم، والرياح مثارة، فراحتا تنظران إلى الجو فى ذعر، فقالت فيولا: "سيكون يوما صعبا"، فسألتها جانيت: "متى سينفذون؟ أليس لديك فكرة؟ فهمست فيولا: "أعتقد غدا، فمن المفترض أن يبحروا الليلة، ولكن إذا فعلوا ذلك فنصفهم سيغمره الماء".

غيرت ملابسها واتجهت فى سيارة عسكرية صغيرة إلى الرصيف، وصلت هناك فى الحادية عشرة، كان الجو سيئا جدا، فشقت طريقها حتى قابلت قائد الرصيف وأدت له التمام: "أتمنى ألا أكون تأخرت يا افندم، سيادتك لم تحدد توقيتا معينا".

فرد عليها: "لا بأس، كان يمكنك أن تأخذى راحتك فى النوم، فالعملية تأجلت أربعا وعشرين ساعة"..

ظلت على الرصيف لمدة ساعتين، وتناولت الغداء مع البحريات فى ليبهاوس، ولم يكن لديها ما تفعله. فالقائد أعطاها راحة اليوم كله، ولكن طلب منها أن تكون على اتصال فى مادستون. عندما عادت إلى عنبرها شعرت بالتعب والإعياء، فخففت من ملابسها، واستلقت على سريرها بعضا من الوقت. حوالى الساعة الخامسة استيقظت وخرجت لديف فى وجاره، وأخذت له الطعام الخاص به، وأحضرت فرشاة ملابسها وراحت تنظفه بها، ورأت أن ذلك أفضل من أن تظل فى توتر وهى تفكر فى الحرب التى أوشكت أن تنشب.

فى تلك الليلة، عندما دخلت لكى تنام كانت العواصف شديدة والأمطار غزيرة، ولم ينم من زميلاتها البحريات إلا أقل القليل، فهن صغيرات فى السن، ولهن أصدقاء، أو خطاب، أو أزواج، فرحن يفكرن فيهم وهم يرمون ويشدون حبال السفن فى هذا الجو العاصف لكى يذهبوا إلى فرنسا لمقابلة الألمان فى تلك الحرب المرتقبة.

حاولت جانيت أن تنام، ولكن القلق استولى عليها لغاية الفجر. وخيم عليها الخوف، ليس على أبيها فهى تعرف أن السفن التجارية لن تكون فى المجال إلا بعد أن ينهزم الألمان، ويدحروا من المكان، ولكن شبح الخوف كان من أن تفشل العملية ويعم الخراب على كل شىء. اختلط فى مخيلتها هذا الهاجس بالإضافة لشبح هؤلاء السبعة الذين قتلتهم، وهم من أصدقائنا، فلقد ظل الشعور بالذنب مسيطرا عليها، حتى موتها على ما أظن. وها هو بيل يلقى مصرعه دون أن تعلم شيئا سوى أنه مات، فها هو مقابل ذلك الجرم، فالقصاص لا يرحم.

لم تذق النوم إلا قبيل الفجر، وإن كان متقطعا ومليئا بالكوابيس والأرق.

عندما أعلن ضابط الصف نوبة الصحيان للنائمين، كانت الشمس قد ظهرت بين السحب، وأثناء الإفطار كان واضحا أن الرياح تخمد شيئا فشيئا.

ذهبت جانيت إلى الرصيف، وأدت التمام للقائد فأخبرها بأن التعليمات توحى بأن العملية أعد لها لتتم فى الغد، السادس من يونيو. أسند لها بعض المهام الصغيرة ثم أعطاها راحة باقى اليوم إذ إنها ستكون مشغولة جدا فى الغد.

مرت ليلة ثانية بلا نوم على فتيات البحرية حيث المقاتلات تحلق فوق رءوسهن فتخطف النوم من عيونهن. إنهن أصغر من أن يعرفن طريق المهدئات، فهن معتادات على الحياة الصحية، ولايعرفن ما هى كآبة الأنثى.

قرب الفجر تجمعت مجموعة منهن بالبيجامات، وتسمعن فى ليلة صيفية، على بعد أميال صوت صدى قصف بالقنابل .

جاءت إشارة من القيادة البحرية: "فلتجتمع الآن المجموعة المحمولة جوا".

فى تلك الليلة لم تنم جانيت، فالقلق كان سائدا فى البحرية كلها. وكانت جانيت منذ أن أسقطت يونكرز، ومنذ أن مات بيل، كانت تعمل بلا انقطاع لكى لا تعطى نفسها أى فرصة للتفكير. ولكن الآن حيث التوتر والقليل من العمل سيطر عليها كابوس الشعور بالذنب. إنها قتلت سبعة رجال، ليسوا ألمانا، ولكنهم بولنديون وتشيك هربوا لكى يحاربوا فى صفوفهم، إنها دهستهم من منطلق غرورها وحماقتها. ولكن الله عادل، فها هو أخذ بيل كعقاب لها، ولكن هل هذا العقاب يكفى؟. ربما سيأتى الباقى من العقاب، فهى قتلت سبعة، وبيل واحد فقط، والواحد لا يكفر عن قتل سبعة، فلربما سترتكب خطأ ما وتقتل فيه ستة، قد تنفجر عبوة أعدتها لغرض ما وتقتل ستة من أعز أصدقائها، فالرب عادل، وحكمه لا يرد.

إنها ترقد متيقظة معذبة طوال الليل.

استيقظت الفتيات البحريات حين الفجر والتففن حول الراديو فى حجرة الاستراحة ليستمعن إلى اخبار الغزو التى تبثا بى بى سى. ذهبت جانيت إلى الرصيف بعد الإفطار وليس لديها ما تفعله سوى الاستماع مرة ثانية إلى جهاز لاسلكى صغير يتحدث بلا انقطاع عما يحدث فى الشواطئ المختلفة. كانت الفرصة ضئيلة بأن يعودوا إلى أماكنهم قبل حلول الليل، فى وقت الغداء صرف قائد الرصيف طاقمه كى ينالوا قسطا من الراحة.

تناولت جانيت ثلاثة أقراص ورقدت على سريرها فى سكن البحريات، ثم نامت حتى الساعة السادسة. كان هذا هو آخر قسط من النوم الذى عوضت به عدم النوم لعدة أيام.

فى الساعة العاشرة والنصف ليلا عادت سفينة الإنزال إلى ليب. سمعت جانيت شيئا ما من جندى أثناء التزويد بالمدافع والذخيرة إذ قال: "إنهم أنزلوا ألغاماً أرضية، ومقذوفات قديمة، وكل ما يحدث فرقعة، لقد عثرنا عليها، وهذا أمر خطير على شباننا. أما بالنسبة إلى المقاتلات الألمانية فأضاف. جاءت واحدة أو اثنتان وراحتا بإلقاء المقذوفات علينا.

راحت جانيت بعد أن أفرغت المؤن بالمساعدة فى تشحيم مواسير المدافع، ثم ذهبت للمساعدة على سفن أخرى. لقد استغرق التشحيم وإعادة الشحن حوالى خمس ساعات. بعدها ذهبت جانيت وماى إلى مقر قيادة الرصيف حيث تناولتا شايا مغليا وسندوتشات لحمة. ليس هناك أى علامة على وصول الأسطول الصغير رغم أن موعد وصوله قد حان، وكانت المعدات تم تجهيزها على الرصيف. ارتدت البحريات معاطفهن الثقيلة ودخلن فى شباك التمويه ورحن فى النوم. حوالى الساعة السادسة تم إيقاظهن مرة أخرى، فخرجن غائمات العيون، فى وقت الفجر البارد إذ جاءت سفينة إنزال أخرى من فرنسا، فاحتسين بعض الشاى وذهبن إلى العمل. استدعاهن القائد فى تمام الثامنة لتناول الإفطار لمدة نصف ساعة، ثم عدن إلى العمل مرة أخرى. عادت إلى آخر سفينة فى الساعة الواحدة ظهرا، وكانت هناك واحدة للشحن على الرصيف، فتناولت البحريات غداء سريعا واستأنفن عملهن.

فى يوم الأربعاء السابع من يونيو، أخذت فيولا داوسن زورقا، بعد الظهر، إلى ليب، وهناك قابلتها جانيت وقالت لها: "هل ستذهبين يا عزيزتى فيولا إلى ماستودون الليلة؟

فأجابت: "نعم، إلى حد علمى، هل تريدين شيئا من هناك؟

- لن أستطيع أن أذهب لعدة أيام، وبالتالى لن أرى ديف، فأرجوك أبلغى طاهية السفينة لتعد له طعامه لعدة أيام.

- وهو كذلك يا صديقتى، هل تريدين أن أحضره لك يوما، أم لا تريدين أن يزعجك؟

- لا أستطيع الاعتناء به مع كل هذا العمل، ولكنى أشتاق لرؤيته، فإذا أمكن أن تحضريه وتأخذيه مرة أخرى فى الحال، سيكون أفضل.

- وهو كذلك يا جانيت، أتمنى أن يتاح ذلك قريبا.

استمر العمل فى أيام الخميس والجمعة والسبت بدأب، فالسفن تذهب وتجىء للشحن والتفريغ، وكانت الفتيات يأكلن وينمن بلا انتظام، وكن يشتغلن فى حالة ذهول من شدة التعب. حتى إنه عندما جاءت قائدة البحريات من ماستودون وأعطت لهن بعض الراحة، رفضن حيث لا يوجد لهن بديل، وقلن إنهن على ما يرام، وإنهن أخذن قسطا وفيرا من النوم، رغم الإجهاد الذى كن فيه.

فى صباح يوم السبت العاشر من يونيو، أستقلت الضابط الثالث للبحريات دراجتها من ماستودون إلى الميناء، كان وجهها اللطيف مكتئبا ومنزعجا. أسندت الدراجة إلى جدار مقر القيادة ودخلت لرئيس الرصيف وقالت: "أين برنتيس يا افندم؟، فأشار إلى إحدى السفن على الرصيف وأجابها: "هناك فى هذه السفينة"، فقالت وهى مترددة: "هل من الممكن أن تستدعيها هنا يا افندم، إننى أريدها، وأفضل أن أراها هنا، وليس على السفينة، لقد تلقينا رسالة من أمها تفيد بأن أباها لقى مصرعه".

عندما جاءت جانيت، نادتها الآنسة كولين وهى متوترة: "جانيت، تعالى، أريدك فى شىء ما". وأخذتها نحو طريق على الشاطئ، وقالت لها: "لدى أخبار سيئة بخصوص والدك".

فقالت جانيت بسرعة: "هل أبى قتل؟

- للأسف نعم، حاول بعض الأشخاص أن يتصل بك مبلغا رسالة من أمك.

فأعادت جانيت: أبى قتل! أليس كذلك؟

ـ هذا ما قالته الرسالة.

أخذت جانيت تتمشى للحظات فى صمت، ففى قرارة عقلها كانت تتوقع هذا، لأن الرب عادل فى حكمه، ويجب أن تلقى العقاب. فمنذ أن سمعت بأن السفن رست على شاطئ نورماندى لتفرغ بعض المعدات أيقنت أن أباها ليس بعيدا عن الجيش الألمانى. كانت متعبة لدرجة أنها لم تستطع أن تحزن، فهى منهكة من كثرة العمل وقلة النوم. بابا مات! لربما عندما ترتاح تتاح لها الدموع، وتستطيع أن تذهب إلى الكنيسة.

قالت لكولين فى هدوء: "شكرا لك على إبلاغى"، ثم عادت أدراجها إلى الرصيف.

فقالت الضابط: "لقد رتبت لك إجازة ليومين يا برنتيس. يمكنك الذهاب إلى ماستودون وأن تغيرى، وترحلى فى المعدية القادمة. خذى دراجتى إن شئت."

فقالت جانيت: "لا أريد إجازة".

فاستغربت الضابط: "عرفنا أنك الابنة الوحيدة، ويجب أن تذهبى لوالدتك".

ـ ليس قبل أن أنهى ما لدى من مهام.

ـ من الممكن أن تقوم سبينكز بعملك حتى تعودى.

ـ متى سينتهى التفريغ؟

ـ يوم الثلاثاء.

ـ إذن سآخذ الإجازة من يوم الثلاثاء.

ـ لا بد من أن تتصلى بأمك يا برنتيس.

ـ أتمنى ذلك، هل لى أن أتصل من هنا؟

ـ بالتأكيد، سأطلب من القيادة توفير خط لك.

بعد ربع ساعة، كانت جانيت بوجهها الصارم وعيونها خالية الدمع ويديها الملطختين بالشحم تتكلم مع أمها: "ماما العزيزة، لا أدرى ماذا أقول لك؟، أنا غير مستوعبة الموقف، كيف سمعت ذلك؟... يا له من طيب.. لا ينفع الكلام على التليفون، من معك الآن؟... هل ستبقى معك طويلا، لن أستطيع الحضور إلا يوم الثلاثاء، أنت تعلمين السبب، سأتصل بك غدا مرة أخرى، سأكون عندك الثلاثاء بالليل، خلى بالك من نفسك".

كانت تتحدث فى غرفة تحت الأرض، كانت مخصصة للقائد، ولكنه الآن غير موجود، فهو فى الجهة الأخرى من القنال، وجلست بعد المكالمة فترة قلقة، وكانت الضابط كولين فى انتظارها فى الخارج فاستقبلتها قائلة: "هل أنت على ما يرام الآن؟

- نعم، شكرا لك، شكرا للسماح لى بالمكالمة من هذه الغرفة، هل يمكننى التحدث لها غدا؟

- بالطبع، سأدبر لك الأمر، ألست فى حاجة للذهاب إلى ماستودون لتأخذى بعض الراحة؟

- لا، أود الانتهاء من عملى هنا.

عادت إلى عملها وهى فى حالة غير متزنة، بين ضجيج الآلات، وضوضاء التفريغ للذخيرة وتعبئتها. وبعد الانتهاء تناولت الغداء، وذهبت للنوم، ولكن لم تنم إلا بعد فترة طويلة من القلق وعدم الاتزان.

فى صباح اليوم التالى جاءت فيولا على مركبة، وكان ديف على سطحها، لقد جاءت به من أجل جانيت. بينما كانت جانيت تعمل فى سفينة أخرى. نزل ديف يجرى بين الدبابات والناقلات بحثا عن جانيت، حتى دخل أسفل دبابة. فجأة سمعت فيولا نباحاً صارخاً وصوت شىء صلب يقع، فهرعت للمكان، وكذلك جانيت راحت تجرى حتى وصلت إلى الرصيف ووجدت مجموعة جنود يقفون حول الكلب ديف وهو يعرج بألم على رجليه الأماميتين

بينما لا يستطيع أن يحرك الخلفيتين. فأقعت جانيت بجواره: "آه، ديف". فسكت الكلب عن النباح وراح يتشمم فى يدها، فما إن لمسته حتى راح ينبح بصوت مؤلم. نظرت حولها ورأت جنديا يحمل مسدسا فقالت له: "أرجوك أطلق عليه الرصاص". فتردد، وسألها: "لمن هو؟ فأجابته: "إنه لى، أرجوك أطلق عليه الرصاص".. كان الرصيف معبدا بالخرسانة، وكان حول المكان دبابات وحافلات، فقال الجندى: "لا أستطيع أن أفعل ذلك هنا، فسترتد الرصاصات، يجب أن نأخذه بعيدا، اذهبى أنت إلى قمة الرصيف، وأنا سأتولى أمره".. ذهبت بعد أن ألقت نظرة أخيرة على الكلب، والدموع تنهمر من عيونها. وحمل الجنود ديف إلى الشط حيث الرمال. سمعت جانيت طلقتين فى كلب أخى بيل. بهاتين الطلقتين كانت بداية النهاية لعمل جانيت فى البحرية.

لقد أخبرتنى فيولا بعد ذلك بسنين، عندما كنا نحتسى بعض القهوة فى مطعم أيرل كورت بعد أن تناولنا الغداء. قالت لى: "بعد ذلك عدت بالمركب، ثم عدت لكى أقابل جانيت ولكن لم أجدها فسألت عنها مای سيبكنز التى قالت لى: "إنها غير موجودة هنا، لقد كانت تبكى بشكل هستيرى، من الواضح أنها فى حالة يرثى لها، ابحثى عنها أرجوك، وخذيها لماستودون".. وقالت لى فيولا إنها راحت تبحث عن جانيت حتى وجدتها بعيدا على الشط، وقد حفرت حفرة ودفنت فيها ديف، وكانت تبكى والدموع تسيل من عيونها، فربتت على كتفها وقالت لها: "هيا أيتها الفتاة الحميمة، فلا فائدة من جلوسك"، فقالت جانيت: "يجب أن أعمل، ولكن لا أستطيع أن أتوقف عن البكاء"، فقالت لها فيولا: "نعم، ولكن هيا سآخذك إلى المقر". فقالت: "لا، لا تستطيع مای أن تنجز العمل بمفردها"، فقالت لها فيولا: "لا، تستطيع فالعمل قل عن البداية بكثير"، وكما أخبرتنى أخذتها إلى الرصيف وقابلت

القائد هناك وطلبت منه أن تأخذ جانيت باقى اليوم راحة، وأن تذهب بها إلى المقر فأبدى أسفه لما حدث ووافق على أن تأخذها.

قالت فيولا بعد ست سنوات: "إنها القشة التى قصمت ظهر البعير، فقد مات صديقها بيل، ومات أبوها ولم تذرف دمعة، ولكن حينما مات الكلب ديف انفجرت بالبكاء، وكأنما شعرت بذنب ما".

سألتها: وماذا حدث بعد ذلك؟

فأجابتنى فيولا بأنه بعد أن ذهبت إلى المقر، تصرفت الضابط كولين بعرض جانيت على طبيب بحرى، وأن جانيت ظلت فى حالتها الهستيرية من البكاء لمدة طويلة وظلت تحت العلاج على يد طبيب فى أكسفورد، ولكنها لم تعد بعد ذلك للبحرية.

بعد أن عدت إلى أكسفورد عام ١٩٤٨ حاولت البحث عن جانيت برنتيس، وعرفت أن أمها ماتت عام ١٩٤٦، وأنه تم بيع المنزل، وعندما وجدت الوكيل الذى تمم البيع وسألته عن جانيت عرفنى بأنها حولت كل المبلغ للبنك وصرفته وهو لم يعرف عنها شيئا غير أنه علم بأنها سافرت خارج البلاد.

عندما قابلت مای سبكينز دلتنى على السيد جريمستون زميل الدكتور برنتيس فى الجيش، والذى حكى لى بعد أن قابلته كيف لقى الدكتور برنتيس مصرعه. سألته إذا كان يعرف شيئا عن جانيت فأجابنى بالنفى منذ ان قابلها بعد وفاة أمها وأبلغنى بأنه لا يعلم عنها شيئا.

وكما قلت سابقا إنى حاولت أن أقابل جانيت، ولكن بلا جدوى. وكنت قد أرسلت لها خطابا عام ١٩٤٤ أطلب فيه مقابلتها ولكنى لم أتلق الرد، لربما لم يصلها الخطاب ولاسيما أنها فى ذلك التاريخ لم تكن فى مقر البحرية. فقد كانت تتنقل من مكان إلى مكان للعلاج وذلك بسبب متاعبها العصبية. دلتنى فيولا على أحد هذه الأماكن فى لندن، وذهبت هناك وقابلت المسئولة

التى تذكرت الحالة وأخبرتنى بأن جانيت برنتيس كانت هناك فى خريف ١٩٤٤، وكانت تعانى من اكتئاب، وشعور بالذنب لشىء ما تتخيل أنها فعلته فى الحرب، وأنها كانت أميل للانتحار. ولربما منعوا عنها خطاباتى تفاديا لحدوث نكسة نفسية.

ثم جاءت أحداث بداية عام ١٩٤٥ حيث شنت القوات الألمانية غارات مكثفة على القوات الجوية الملكية، وسببت خسائر جمة. وكنت فى صباح ذلك اليوم فى عرض بالطائرات، ولقد أحسست حينما كنت فى الكابينة أن شيئا ما خطأ يحدث. وإذ أرى شيئا يتبعنى، وفجأة امتلأت السماء حولى بالدخان. وما هى إلا لحظة وإذ بطائرتى تهبط وهى مشتعلة. اللاسلكى لا يعمل، مقبض السرعة لا يعمل، رجلاى لا تتحركان، رحت فى غيبوبة، لم أفق إلا وإحدى قدمىّ قد ذهبت والأخرى لا تعمل. قبل أن أتنبه جيدا جاء الطبيب وأعطانى حقنة فرحت فى غيبوبة أخرى. وهكذا كانت نهاية عملى بالقوات الجوية الملكية.

انتقلت بعد يومين إلى غرب انجلترا حيث مكثت أربعة شهور فى مستشفى القوات الجوية. لقد أجريت لى ثلاث عمليات لإنقاذ قدمى اليسرى، ولكن بلا فائدة. وكانت حالتى النفسية فى هذه المدة سيئة جدا، وإلا فكيف حالة رجل يفقد قدميه وهو فى الحادية والثلاثين؟ لا تتصور كيف سيعتاد على العجز، وكيف سيعتاد على عدم المتعة التى كان يتمتع بها من قبل. لقد كنت أعشق ممارسة الرياضة فى الشتاء مثل التزحلق على الجليد، وكنت مغرما بالسباحة والمشى على الهضاب. كنت فى حالة اكتئاب شديدة حينما كنت فى المستشفى لأنى تيقنت أن هذه الأيام ولت ولن تعود، وكان علىّ أن أتحلى بالشجاعة التى تعيننى على تحمل ذلك.

كان لى عدد من الأصدقاء فى انجلترا من خارج القوات الجوية، ولكن هؤلاء الأصدقاء تبددوا، ولم أعد أطيق أن أرى أحداً. ولكم كنت خجلا من

نفسى فى تلك المدة، ولا أنكر أنى كنت فكرت فى جانيت، وكيف لم تتعب نفسها للرد على خطابى الذى أرسلته لها. لكم ضقت ذرعا فى تلك الفترة من كثرة الشعور بالشفقة على الذات.

قضيت بعد ذلك فترة تدريب على الأقدام الصناعية، وكنت فى حالة ميسورة إذ كان أبى يرسل لى ما أريد من أموال. أردت أن أشترى سيارة جديدة، ولكن لم يكن متاحا أمامى سوى سيارة عمرها ست سنوات، وكان الوقود محدودا فى تلك الفترة، وغير مسموح باستبدال إطارات. كان الأمر صعبا على التعود على القيادة بالقدم الصناعية، وعلى استخدامها بالشكل المريح.

شعرت بالفتور نحو إنجلترا، واشتقت لكومبارجانا حيث الشمس المشرقة، ولا قيود على الوقود ولا الإطارات. وحجزت للسفر بحرا، فلم أرغب فى الجو. وقبل أن اركب البحر أخذت جولة فى فرنسا بعد أن حصلت على الوقود اللازم عن طريق السوق السوداء، ولكن فى فرنسا كان الوقود متوافرا لمن يستطيع أن يدفع. ثم ذهبت بعد ذلك إلى إيطاليا. لقد قضيت شهرين فى هذه الجولة الممتعة، وكنت قد استعدت بعضا من الثقة فى النفس ومن وضعى الطبيعى نفسيا.

عدت إلى بريطانيا قبلى سفرى إلى أستراليا، وبعت سيارتى التى أصبحت بدونها عاجزا بالفعل إذ كانت لى قدما وساقا. فلقد حدث أن سقطت أكثر من مرة أثناء سيرى وركوبى السفينة، فاضطررت أن أظل فى كابينتى لا أغادرها متسائلا هل من الصواب أن أذهب إلى كومبارجانا، وهل سأستطيع أن أركب الخيل وأمارس الحياة الطبيعية أم لا.

عندما وصلت أستراليا كان أبى فى استقبالى، وراح يخبرنى عما حدث أيام الحرب، وعما أحدثه فى المزارع التابعة لنا من آلات، وإن كان لا يزال يحن لاستخدام الخيل رغم وجود سيارات فى المزرعة. وكانت هيلين هناك،

وكان من الممكن أن تكون صحبة مناسبة لى لولا أننا نختلف فى التفكير والاتجاهات، فهى أصغر منى بثمانية أعوام، وكانت تتوق جدا لمغادرة أستراليا، لذا كانت تخطط للعيش فى إنجلترا.

أعتقد أن الحرب أحدثت فجوة بين الشبان والشابات فى أستراليا أقل مما أحدثت فى إنجلترا حيث التجنيد كان إجباريا على النوعين، أما فى أستراليا فكانت الخدمة المسنودة للفتيات أسهل بكثير، تكاد لا تكون. لذلك كانت هيلين تعيش حياتها الطبيعية مع أصدقائها.

رجوعى لأستراليا كان مساعدا لهيلين لكى تتخذ قرارها النهائى فى سفرها إلى إنجلترا، فكنت قد بدأت العمل فى المزرعة وفى محطة التشغيل الخاصة بنا، ولم أعد أرى أصدقاءها بعدما رحلت عام ١٩٤٦ إلى بريطانيا، واستقرارها هناك.

كنت أذهب بين الفينة والأخرى إلى ميلبورن بحجة حضور المعارض الخاصة بالآلات. رغم ذلك لم أستطع أن أشغل كل وقتى. فرحت أرجع للكتب التى كنت أدرسها فى القانون فى أكسفورد قبل الحرب لكى أستعيد ذاكرتى. مرت الشهور وأصبحت معتادا على عجزى وبدأت أستخدم قدمىّ بشكل مقبول، ولكنى صرت أفكر فى إنجلترا أكثر وأكثر. فبقائى فى إنجلترا لأكثر من ست سنوات أثناء الحرب جعلنى أتواءم معها ومع صرامتها أكثر من التكيف مع بلدى وبساطتها. إن بريطانيا بمشاكلها وصخبها افضل من هنا حيث يوجد هناك الحركة والنشاط. لو أن بيل وصديقته جانيت برنتيس أو زوجته كانا معنا لكان الأمر مختلفا. نعم، كنت أفكر فى جانيت رغم أنى لا أعلم إلا أنها صديقة أخى. أرسلت لها خطابا أحكى لها عن الحادثة وإصابتى بالعجز، ولكن لم أكن أعرف العنوان بالضبط فعاد الخطاب لى مرة أخرى. أرسلت لها على عنوان أبيها فى أكسفورد، ولكن عاد الخطاب

مرة أخرى بعد أن ألحق معه صديقه بيرسر ملحوظة بأن الدكتور لقى حتفه فى الحرب وليس لها عنوان معروف.

أرسلت إلى بيرسر خطابا أشرح فيه أن جانيت كانت خطيبة أخى وعن مدى علاقتنا بها. ولقد جاءنى الرد بعد مدة طويلة شارحا أن سبب التأخير هو بحثه عن معلومات قد تفيد، ولكنه لم يوفق إلا فى القليل إذ كان أبوها مدرسا فى أكسفورد وليس له أقارب فى بريطانيا، وقد كان له أخ وحيد توفى، وكان له بنت تزوجت فى سنغافورة وليس لها اسم معروف بعد الزواج أو عنوان، وأن جانيت قد تكون ذهبت لعمة لها ولكن مع الاستفسار لم يصل إلى شىء.

لم أشأ أن أخبر والدى عن أى شىء يمت بصلة لجانيت حتى أعثر على مكانها ونتصل بها، فلربما تكون تزوجت أو حدث فى الأمور أمور. لقد مر على رؤيتى لها الآن أربعة أعوام، فلا أدرى ما شكلها الآن، ولا حالتها النفسية والاجتماعية.

بعد يومين من وصول الخطاب فاتحت أبى فى رغبتى للعودة إلى انجلترا واستكمال دراستى فى أكسفورد والتحاقى بسلك المحاماة، فتفهم الموقف قائلا: أليس هنا مكان لك للعمل؟

- فى الحقيقة لا مكان لى.

فقال: "كنت أتمنى أنا وأمك أن تستقر معنا وتتزوج هنا ويكون لك كيان مستقل بك، ولكن يبدو أن الأمر لا يروق لك".

فابتسمت: "لا أحب أن أظل هكذا، أريد أن أغير الحالة التى أنا فيها وأقوم بأى عمل".

- هذا أمر معقول، فأنت لا زلت شابا. كم عمرك يا آلان؟ ٣٢؟

لم يكن أبى ماهرا فى الحساب فقلت له: "٣٤ سنة، ويجب أن أعمل شيئا قبل أن أتقاعد للأبد، وهذه هى السن المناسبة".

ـ سنفتقدك كثيرا، ولكن لك الحق فى أن تتجول فى هذه السن، فأمامك الكثير فى أوروبا".

بالفعل ذهبت إلى بريطانيا فى أغسطس عام ١٩٤٨، والتحقت بالجامعة. وحرصت هناك على مقابلة زملاء الدكتور برنتس، وعرفت منهم أنه لقى مصرعه أثناء الحرب، وحاولت أن أعرف أى معلومات عن جانيت فلم أعرف إلا أنها تركت الخدمة لترعى أمها الأرملة، وأن عنوانها هو القديم، ولم أعرف شيئا يفيدنى فى العثور عليها غير أنها سافرت إلى هولندا عام ١٩٤٦، ولكن لم تترك وراء ها أثراً لمعرفة مكانها، وهكذا وصل بحثى عنها إلى طريق مسدود.

استطعت رغم ما أنا فيه من إعاقة أن ألتحق بنادى الطيران فى لندن، وأخذت فى استعادة روحى المعنوية، وبدأت أتدرب شيئا فشيئا حتى استطعت أن أقود الطائرة مرة أخرى. وما إن حل عام ١٩٥٠ حتى اشتريت سيارة، ورحت أتجول بها فى كل الأنحاء. وذهبت إلى البحرية واستخرجت شهادة وفاة لأخى بيل، وحصلت على ما تبقى له من متعلقات.

لقد تعرفت فى أكسفورد على عدد كبير من الفتيات المرحات واللاتى يتسمن بروح الانفتاح والصراحة التى كانت تتميز بها جانيت برنتيس، ولكن لم أرتبط مع أى واحدة منهن بأية علاقة خاصة.

أتذكر أنه فى أغسطس ١٩٥٠، قمنا برحلة إلى غرب إنجلترا وكنا صحبة من الأصدقاء والزملاء، وتصادف أن هناك فتاة اسمها سينشيا على ما أعتقد، لم أكن قابلتها من قبل، ولم أدر كيف ذهب الحديث بنا إلى الحرب. وللعجب أنها كانت تعرف عنى الكثير ولا أعرف عنها شيئا. وكان عمرها تقريبا سبعة وعشرين عاما. سألتها بعد أن أخبرتنا أنها اشتركت فى الحرب عن مكان مشاركتها، فقالت فى البحرية. فسألتها- هل تعرفين قائدة تدعى جانيت برنتيس؟

- الفتاة التى أسقطت طائرة ألمانية بمدفع أورلينكون؟

- هل فعلت ذلك؟ لم أسمع بذلك من قبل. التى أقصدها كانت خطيبة أخى، ولكنه لقى مصرعه فى نفس التوقيت.

- من المؤكد أنها هى، فليس هناك أى بحرية أخرى تدعى برنتيس".

- هل تعرفينها؟، لقد كانت فتاة ممتازة.

- لم أقابلها شخصيا، ولكنى كنت أعمل مع فيولا، وهى ممتازة أيضا، وبلا شك تعرف عنها كل شىء

- كيف لى أن أتصل بفيولا؟

- أعطيك رقم التليفون، وأخبرها عنك، وأرتب بينكما موعدا.

وبالفعل أعطتنى الرقم. ورحت من جانبى بالاتصال فردت على من الطرف الآخر، وقبل أن أخبرها عن نفسى أخبرتنى بأن سينشيا عرفتها كل شىء.

- هل تقابلين جانيت فى هذه الأيام؟

- للأسف لا، لا أعرف عنها شيئا رغم أنا كنا متلازمتين فى البحرية.

- هل يمكننى أن أقابلك؟

- لم لا؟

وأخذت منها موعدا فى مكان سكنها. وذهبت فى الموعد المحدد. حيث تقيم فى مكان معقول يليق بإنسانة تعمل عملا محترما.

عندما فتحت لى الباب كانت ملامحها تدل على أنها جميلة لولا بعض النحول والشحوب، وكانت تمسك فى يديها بفرشاة رسم، فأشارت لى بالدخول وقادتنى لغرفة بها حامل رسم، وأدوات رسم، فقالت معتذرة: "آسفة يجب أن أنتهى من هذه اللوحة قبل الغروب، اخدم نفسك بنفسك، فهناك المشاريب على الطاولة".

- لا تزعجى نفسك بى، ولكن لم تخبرنى سانشيا بأنك فنانة.

- هـذه هـواية أمـارسـهـا فى وقت الفـراغ، تناول كـوبا من شـراب الشيرى".

صببت لنفسى كوبا، وصببت لها أيضا ووضعته بجوار الحامل. أخذت أتأمل اللوحة الزيتية التى ترسمها تحت أشعة الشمس النافذة من فتحة علوية من السقف، حيث إنها كانت تسكن فى الدور العلوى تحت السقف مباشرة، والتى انعكست بشكل جميل على اللوحة. سألتنى وهى تستبدل الفرش: "هل لك فى الرسم؟

- أتذوقه فقط، ولكن لا أعرف تقنياته.

- إذن صرنا اثنين.

- كيف؟

- أنا أيضا لا أعرف تقنياته، ولم أدرسه قط.

- وبهذا المستوى؟

- الدراسة لا تضيف شيئا، وأنا أفعل ما أشعر به فقد.

رحت أتأمل بقيت اللوحات التى على الجدار، كلها رائعة وتدور حول البحرية، فسألتها: "أرى أنك تركزين على البحرية فى كل رسوماتك".

- فى البداية لم أحبذ فكرة التفكير فى الحرب، ولكن بعد أن أفقت، جميعا تقريبا أفقنا، تساءلت هل يمكن أن تعود الحرب مرة ثانية، على الأقل فى حياتنا؟ وفجأة وجدت نفسى متحفزة لكى أسجل كل ما عايشته فى الحرب فى لوحات، قبل أن أنساه، يجب أن أسجل ما عانينا منه".. راحت ترسم فى صمت، ثم قالت: "من الصعب أن نتخيل أن هذا سيحدث مرة أخرى، أو أننا مررنا بتلك التجربة".. ثم أردفت بعد أن نفضت الفرشاة على ورقة صحيفة: "لقد أخبرتنى جانيت عنك، حينما أخذتك جولة فى زورق".

- نعم كنت أنا وبيل.

وقالت وهى تكشط لوحة الألوان بسكينة المعجون، ثم مسحتها بقطعة قماش: "لقد قالت عنك إنك رائع وماهر فى مهنتك العسكرية".

- وها هى النتيجة، عاجز أسير بعكازين وأعيش على دخل الصوف، وأهتم بالقانون.

واستمرت فى لم وترتيب أشيائها، إذ إن الضوء بدأ يخفت، وانتهى عملها المسائى وهى تقول: "كلنا يظن عندما يكون شابا أن ما هو فيه لن يتغير، ثم يفيق ليجد أن الأمر ليس كذلك وسرعان ما يجد شيئا آخر جديدا، واهتمامات أخرى".

صبت لى كأسا أخرى من الشيرى، وأخذت لحظة تتأمل رسمها ثم دخلت لتتشطف وتغير ملابسها. ثم عادت بعد أن ارتدت معطفا فوق البلوزة وهى تسألنى: "هناك عدد محدود من المطاعم فى المنطقة التى أذهب إليها، فأى مطعم تود؟

- ما تختارينه.

قبل أن نخرج من الشقة اتجهت نحو دولاب وراحت تقلب ما فيه، وتفتش لوحة كراسة رسم بعد أخرى حتى استقرت على واحدة وفتحتها، وقالت: "انظر". فإذ برسم بلون بنى داكن لفتاة بحرية عريضة المنكبين، تمسك بمدفع أوركلون وتصوبه نحو طائرة ألمانية. فقلت: إنها جانيت". فقالت: "رسمتها فى نفس اليوم الذى حدث فيه هذا". فقلت لها: "لقد أخبرتنى سانشيا أنها أسقطت طائرة ألمانية ولكن لم تقل التفاصيل"..

- سأحكى لك. ثم أعادت الكراسة، وصمتت برهة، وقالت: "هيا للمطعم".

ذهبنا للمطعم الذى اختارته، وتناولنا العشاء، وقليلا من الخمر التى شجعتنى أكثر للحديث مع فيولا داوسن. أخبرتنى عن ذلك اليوم الذى أخذتنا فيه جانيت لجولة بالزورق، وكيف كانت جانيت خائفة من لقائى حيث أخبرها عنى بيل بأنى ذو خبرة وتقديرات متعددة فى الطيران وأنى أدرس

القانون. واضافت أنها عادت سعيدة فى تلك الليلة، وكانت تفكر فى الزواج من بيل. ورحت بدورى أقص عليها ما حدث لى وكيف انقطع خط الوصل بينى وبينها نتيجة للحادثة وما شغلنى بعد ذلك فى المستشفى وغيره.

طلبت من النادل بعض القهوة، وأشلعت لى ولها سيجارتين، ورحنا نتحدث بكل ما لدينا من معلومات عن جانيت. أخبرتنى أنها حاولت أن تعود إلى البحرية، ولكنهم رفضوا فالمبدأ أنهم لا يقبلون أى أحد خرج من الخدمة مهما كانت كفاءته.

وقالت لى إنها قابلتها مرة أخرى بعد وفاة والدتها، وكانت فى ذلك الوقت ترتب لبيع ما لديها فى انجلترا حيث لم يعد لها أصدقاء ولا معارف فيها. وراحت تحكى لى عن علاقاتها الطيبة فى البحرية، وكيف كانت تحب بيل لدرجة أنها كانت تعتنى بكلبه بعدما لقى مصرعه، وكيف انتحبت عندما مات الكلب.

نظرت فى الساعة فإذ بها العاشرة والنصف، فاستأذنت للانصراف، فلديها عمل فى الصباح. خرجنا من المطعم بعد أن دفعت الحساب، تمشينا معا لقرب مسكنها وتكلمنا لدقائق على الرصيف وقبل أن تصعد للبناية قالت لى: "هناك فتاة أو اثنتان تعرفان عن جانيت ربما ما لا أعرفه فى الفترة الأخيرة، إحداهما مای سبيكنز، والثانية «و.ي»، فهما كانتا تعملان معها، وأستطيع ان أعطيك العنوان .

تكررت لقاءاتى مع فيولا، ورحنا نخرج كثيرا، حتى عندما سافرت إلى سويسرا وعادت كنت أذهب إلى سكنها، وأتفرج على رسوماتها البديعة التى بدأت فيها بعد عودتها.

وفى أحد الأيام كانت تفرغ ما فى دولابها من لوحات، فلمحت لوحة جانيت التى رسمتها لها وهى تصوب مدفعها للطائرة الألمانية، فتناولتها، ورحت أتأمل فيها.

قلت: "هل أستطيع أن آخذها؟"

فنظرت إلىّ بحدة، وقالت بعد لحظة صمت: "لماذا تريدها؟

- إنها تشبهها تماما، إنى فى حاجة ملحة إلى صورة لها، إذا كنت تستطيعين الاستغناء عنها.

فلم تجب، ولكنها بعد أن وضعت بعض الكيك والشاى على الطاولة نظرت إلى وقالت: "تعتقد أنك تحبها؟

فأجبتها: "لم أفكر فى أى شىء من هذا القبيل، إنها كانت ستصبح زوجة أخى، يعنى بمثابة أختى".

- شىء غير معقول، لم ترها إلا مرة واحدة لعدة ساعات منذ ثمانية أعوام".

- سيكون غير معقول لو أنى أحبها، إنى مجرد أريد أن أجدها".

- وماذا بعد ذلك، بعد أن تجدها، تعتقد أنها مثلما كانت منذ ثمانية أعوام، وهل أنت مثلما كنت حينئذ؟ أرجوك يا آلان، عش سنك، وتوقف عن تصرفات المراهقين.

كانت على حق بلا شك، ولكنى لم أستطع أن أتحمل كلاما كهذا. وقفت وتناولت عكازى ومعطفى وقلت: "آسف لو كنت سببت لك أى إزعاج، أنا لم أقصد". واتجهت إلى الباب منصرفا.

وقفت تراقب الموقف فتوقعت أن تنادينى لكى أعود قبل أن يقع المحتوم، ولكنها لم تفعل. خرجت وأغلقت الباب خلفى، ولم أنظر إلى الخلف فلا فائدة من النظر إلى الخلف، إذا كان عليك أن تمضى إلى الأمام. ليس من المقبول أن تسعد بشىء نصف مقبول.

بعد يومين وصلنى خطاب من فيولا يشتمل على رسم بالرصاص لجانيت برنتيس، مقطوعا من كراسة الرسم.

والخطاب يقول: "عزيزى آلان، هذا هو الرسم، يمكنك أن تبروزه. أعتقد أنك فى حالة جنون مثل الأرنب البرى. لا أريد أن أراك مرة ثانية، فلا تتصل أو ترسل رسالة. حظ سعيد.

فيولا

أصبحت لندن بالنسبة لى لا تطاق، ففيولا كانت شيئا عظيما وسندا قويا لى فيها. وصرت أفكر فى الرجوع إلى وطنى، ولاسيما بعد أن دب الحزن فى رسائل والداى، وأصبحا لا يقدران على إدارة المزرعة بمفردهما. فعزمت على أن أنهى دراستى فى القانون وأحصل على عضوية النقابة، وأعود، ووضعت لذلك تاريخا محددا وهو ١٩٥٣ كنت خلال إقامتى فى لندن لا أرى هيلين إلا قليلا، وقد استقرت مع زوجها هناك. بالفعل تم ما أردت فى سبتمبر ١٩٥٣، فعزمت على السفر فى أكتوبر. فكرت فى أن أودع فيولا ولكن خفت من الإحراج، ولكنها حلت لى هذه المشكلة إذ إنها قبل سفرى بعشرة أيام جاءنى منها خطاب تقول فيه:

"إنى أهنئك على عضوية النقابة، لقد أخبرتنى سينشيا بذلك، وأخبرتنى أيضا بأنك ستغادر فى ٥ أكتوبر. أريد أن أقابلك، بخصوص جانيت برنتيس، وليكن موعدنا فى المطعم الذى تقابلنا فيه أول مرة يوم الخميس الساعة الثامنة، لا تأت إلى السكن.

فيولا

تلاقينا حسب الموعد المحدد، وبعد أن طلبت، وأحضر النادل الشيرى سألتها: "ماذا عن جانيت؟

- إنها تعيش فى سياتل، هكذا قالت لى صديقتها التى كانت معها فى البحرية، من عام تقريبا، عندما راسلتها فى آخر خطاب بينهما، وها هو عنوانها هناك، لقد أحضرته لك.

أخذت أفكر فى تغيير خط سير العودة وذلك عن طريق أمريكا، ولكن كيف أدبر مبلغا من الدولارات، ربما عن طريق شراء أزرار ماسية ثم بيعها فى أمريكا.

تكلمت مع فيولا فى هذا الأمر ووافقتنى على ذلك، وإن أبدت رأيها بأن أراسل جانيت أولا. وبعد أن تناولنا العشاء أرادت أن تستأذن لارتباطها بعمل. وقبل أن تقف لترحل هرست نصف السيجارة التى كانت بين أصابعها فى الطفاية وقالت: "

هل لو قابلتها ستطلب منها الزواج؟

ـ سأصير مجنونا كما الأرنب البرى، كما قلت أنت، فأنا لم أرها إلا مرة واحدة، لبضع ساعات، ومنذ تسع سنوات، فكيف يكون ذلك؟

ـ سوف تتزوجها وستكون سعيدا معها، وسأرسل لك هدية الزواج.

ورفعت أعينها إلى عينى، وكانت عيونها مغرورقة بالدموع وهى تستطرد: "الآن إن لم يكن لديك مانع، سأذهب". ووقفت واتجهت نحو باب المطعم، وصحبتها إلى هناك حتى استدارت واستوقفتنى قائلة: "عد وادفع الفاتورة". ومدت لى يدها مردفة: "هذا وداع حقيقى يا آلان".. فأخذت يدها فى يدى قائلا: "لم أسبب لك إلا كل شىء متعب، وأنت لم تسببى إلا كل شىء طيب. آسف يا فيولا".

ضغطت على يدى: "ما كان سينفع شىء بيننا، فأنت كما أنت، وستظل هى دائما بيننا، ونحن كبار ونستطيع أن نفترق أصدقاء، حظ سعيد لك فى سياتل".

فقلت لها: "وداعا يا فيولا".

فابتعدت عن المكان، وأنا مازلت واقفا عند المدخل، مترددا، نصف شارد. هممت أن أذهب وراء ها وأناديها ولكنها اختفت عن ناظرى. عدت لأدفع الفاتورة، وقد شعرت بانكسار فى قلبى. كل ما فعلته فى حياتى لم يسبب إلا

متاعب لكل من يحيطوننى. ربما حاولت ان أرجع ذلك لعجزى، ولكن لا يستطيع إنسان أن يبرر نتائج أفعاله بهذه السهولة.

غيرت خطة سفرى وحجزت فى الطيران إلى نيويورك، وسافرت بالفعل يوم ١٤ أكتوبر، ولما لم يكن لى اقارب أو مأوى فيها حجزت فى الفندق. بعد أن استقررت فى الفندق وتناولت العشاء خرجت لجولة فى أعظم مدن العالم، وعدت لكى أبحث عن جانيت، ففتشت فى دليل التليفون عن اسم برنتيس، ووجدت الاسم فاتصلت بالرقم فردت امرأة بلكنة أمريكية، ولما سألتها عن برنتيس أخبرتنى أنها غادرت منذ عام تقريبا بعد أن ماتت قريبتها، وباعت لهم المنزل.

وكنت قد أخبرتها بأنى ارسلت لها خطاباً قالت إنه بالفعل هناك خطاب وصل باسمى وكانت سترجعه إلى مكتب البريد، فطلبت منها أن أذهب وآخذه منها فرحبت بذلك.

ذهبت إليها، واستضافتنى فى منزلها لقرابة ساعة، وأخذت الخطاب بعد عدم وصولى لأية نتيجة فى هذا اللقاء قد يفيدنى بخصوص جانيت.

لم أرد أن أظل هكذا ساكنا، فذهبت إلى السفارة الانجليزية، ولكن دون جدوى، ذهبت إلى المقابر التى دفنت فيها قريبتها، وأيضا لا جدوى، بل وذهبت إلى الميناء ربما كانت تعمل هناك. ولما لم أصل لأى نتيجة قررت العودة إلى وطنى الأم، فاتجهت للحجز وتحديد موعد السفر، وقلت لنفسى كما قالت فيولا: "عش عمرك، وتوقف عن أفعال المراهقين"، نعم طاردنى حلم لمدة سنين، وآن لى أن أنهى هذا الأمر وأن أعود لإدارة مزارعنا فى كومبارجانا. لذلك حجزت عن طريق البحر إلى سيدنى، وبعد الحجز أحسست أن حملا انزاح من على كتفى.

الفصل السادس

كانت الساعة تقريبا الثانية صباحا، وأنا فى غرفتى فى كومبارجانا، قبل أن أقنع نفسى أن أفحص محتويات حقيبة يدها تماما، وليس بينى وبينها أى علاقة شخصية إذ إنها التحقت بالمنزل فى عدم وجودى. ولكن الآن صار لى الحق إذ كانت ستصبح زوجة أخى، وجاءت هنا ورعت أبى وأمى، بصفتها زوجة ابنهما أكثرمن كونها خادمة بأجر. رحت أفرغ المحتويات على الطاولة وأصنفها: كومة للخطابات، وكومة للصور، وثالثة للأوراق النقدية. وكانت هناك أجندة مرتبة، حاولت أن أقرأها ولكن لم أستطع فالخط صغير جدا، ولربما تعرفنى بأشياء لا أريد أن أعرفها. أخذت أفكر فى الأمر، فأمى أحست بالذنب أنها جعلتها تعيسة حتى إنها انتحرت، وهى انتحرت فى ليلة وصولى، لأننى جئت فى غير موعد مجيئى، أى أنا شريك فى السبب، لذلك قلت لنفسى ربما أجد فى اليوميات ما يحل هذا اللغز.

بدأت فى تصفح اليوميات التى بدأت بتاريخ أكتوبر ١٩٤١، التوقيت الذى التحقت به للبحرية، وراحت تحكى كيف التحقت ومن التقت وما إلى ذلك من

أحداث روتينية، وكذلك فى مدخل آخر مؤرخ بأغسطس ١٩٤٢، وتقول فيه كيف كانت تقضى أمسياتها مع زميلاتها، وكيف كان رد فعلهن حين رؤية وسماع القنابل من حولهن. وهكذا سار الوضع فى كل الصفحات التى تحكى عن التدريب، وما صادفها أثناءه. وأخذت أقلب فى الصفحات إذ إنها مكررة وتحكى عن المواقف نفسها.

ورحت أقرأ سريعا حتى جاء اسم بيل وحكت كيف التقت به، وكيف وقعت فى غرامه من أول نظرة. ورحت أقرأ حتى جاء ذكر اسمى لأول مرة. إذ تقول:

"غدا سيأتى شقيق بيل، آلان، وهو كما يقول بيل لديه كثير من المواهب البحرية والجوية، ويدرس أيضا فى القانون فى نفس الجامعة التى يعمل فيها أبى، وبيل يحب أخاه جدا لدرجة أنه يبجله. فى اليوم التالى جاء آلان، وكان فعلا مهيبا، ويبدو كمن لديه خبرة فى كل شىء، وكان يشبه بيل، ولكن على أكبر. لقد اعتززت بآلان، فهو شخصية جديرة بذلك. وتعجبت أن أبناء المزارعين فى أستراليا بهذا الشكل، الأمر الذى جعلنى أغير وجهة نظرى عن أبناء الفلاحين، وأنهم مثلنا تماما، وقلت لنفسى قريبا ستلتقى عائلاتنا، وسأعرف بيل بأبى وأمى، وها أنا تعرفت على آلان، شقيقه".

ثم جاء بعد ذلك ذكر المقاتلة الألمانية: "لقد أطلقت النار على مقاتلة، واكتشفت بعد ذلك أنها صديقة وكانت تلجأ لنا، أظنها من التشيك أو بولندا، ولكن كل من فيها ماتوا، الأمر كله كان خطأ، وتعرضت للتأنيب القاسى بسببه، لأنهم قالوا إن الطائرة كانت قد أنزلت عجلاتها، وأنا لا أتذكر هذا، ولكنى لما رأيتها تقترب أمسكت بالمدفع أورليكون، وأطلقت عليها النار، لم يكن لدى الخبرة بما يجب أن أفعله. لقد أصبت بحالة من الاكتئاب، ولم أستطع النوم."

وتمر صفحات فارغة فى اليوميات حتى جاء يوم أن ذهبت لأبيها وكيف أرادت أن تحكى له عن المقاتلة، ولكن وجدته فى غاية الابتهاج فلم تشأ أن تعكر صفوه.

وتمر صفحات أخرى إما فارغة أو مكررة. ثم جاء اسم بيل بعد ذلك: "تلقيت خطابا من ألبرت فينتش يخبرنى بأن بيل لقى حتفه فى عملية بحرية معه، ذهب ولم يعد، ولم يضف أى تفاصيل، ولا أنا أريد أى تفاصيل. لم أدرك ما حدث، فاستمررت فى عملى، وكأن ما حدث لشخص آخر. سررت لأنى لم أذكر بيل لأبى أو أمى، ولا أعتقد أنه فعل ذلك باستثناء آلان. فلم أشأ أن يعرف أحد عن بيل وعنى أى شىء حتى نتزوج، ولن يعرف أحد عنا شيئا بعد الآن. فلم أرد أن يعطف علىّ أحد، ولا أريد أن يتدخل أحد فيما بيننا. لذلك أرسلت لفينتش أن يأتى لى بأى متعلقات لبيل مثل رسائل أو خطابات أو ما شابه ذلك. لقد كانت المشكلة الوحيدة هى ديف، إذ أخبرنى فينتش أنه سيضطر إلى إطلاق النار عليه إن لم آخذه كما جاءته الأوامر بذلك. ولذلك عملت المستحيل أن آخذ ديف برغم أنهم رفضوا ذلك، ولكن أتيت بديف معى".

راحت الصفحات تسير متشابهة حتى ذكرت كيف مات ديف وكيف انهارت وأصابتها حالة نفسية، وأعطوها إجازة مرضية، وعلى حد قولها، أرسلوها لطبيب نفسانى لم يفعل إلا أن أعطاها سيجارة وكوبا من الشاى وطلب منها أن تجلس وبدأ يحكى عن نفسه، وعن أسرته. ثم جعلها تحكى عن نفسها، فحكت عن بيل، وعن المقاتلة الألمانية، وعن أبيها وعن ديف. وكشف عليها بعد ذلك، وأعطاها العلاج اللازم، وقال ليس بها أى شىء سوى أنها تحتاج للراحة لمدة، فهى مصابة بشدة الإرهاق فقط. واختتمت بعد هذا السرد بقولها". أوه بيل، آسفة على ما حدث لديف، إنها غلطتى."

ومضت اليوميات على المنوال نفسه، ثم مرت تواريخ كثيرة دون تسجيل حتى جاء تاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٤٤: "أخيرا غادر آخر واحد من هؤلاء الأولاد البغضاء بالأمس، كنت قد أخبرت ضابط الإيواء منذ شهر بأن أمي لا تحتمل التعامل معه، ولكنه لم يفعل شيئا، فذهبت إليه وهددت بأني سأقتل أي واحد منهم إن لم يذهبوا، لقد قلت كبار وليس أولاد وأطفال. وبالفعل رحلوا، وعاد لنا المنزل لنا وحدنا. كل شيء سيصير على ما يرام حينما أعود إلى البحرية، فلست في حاجة إلى أطباء بعد اليوم. إني لست معتوهة، أم هذا عقاب لأني أخطأت في تدمير مقاتلة؟ لم تعد أمي تقدر على شيء، لقد ملت من كل شيء. أخذتها لكي أروح عنها إلى السينما كما كانت معتادة أن تذهب مع أبي ولكنها لم تستطع المتابعة. لو أننا لم نبع السيارة لأخذتها في جولات ترفيهية، ولكن ما تقاضيناه من ثمنها أوشك على النفاد. وتأجير بعض المنزل قد يفيد، ولكن ليس لأطفال!. إن لم أعد للبحرية فعليّ أن أجد عملا. لقد تستمر الحرب لمدة عام آخر على الأقل، فيجب أن يستدعوني".

تشابهت اليوميات، حتى حل مارس ١٩٤٥، وبدأت الكآبة تطل من بينها، فقد: "أعلنت الهدنة. والحرب انتهت تقريبا في أوروبا، والمفترض أن هتلر مات، ولكن لاتزال هناك الحرب دائرة مع اليابان. ولو استمرت الحرب معها فستكون بحرية. ولو أن الحرب توقفت فمن المؤكد أن كثيرا من الفتيات سيتركن الخدمة للاستقرار والزواج. وبالتالي من المفروض أن يستدعوني. ولكني لا أدري ماذا سأفعل نحو أمي لو أنهم استدعوني، فهي لم تعد قادرة على أي شيء".

تحدثت اليوميات عن موت أمها في أغسطس ١٩٤٦، ثم مضت إلى أن ذكر اسم فيولا في سبتمبر: "لقد قابلت فيولا وهي تمر بسيارة، لم أكد أعرفها في الملابس المدنية، كم يتغير البشر، ذهبنا معا وجلسنا في مطعم،

وحكيت لها عن أمي وبيع المنزل، وأني أرسلت أكثر من خطاب للبحرية لكي أعود. أخبرتني فيولا أن البحرية تقلل من التجنيد في هذه الفترة، ولذلك من الصعب أن أعود، وعرفت أنها تعمل في مجال السينما في المونتاج، وسألتني فيولا إذا كان لديّ كلب آخر، فأجبتها بالنفي وقلت لها كم أصلي من أجل ديف، فالكلاب يحتاجون للصلاة أكثر من البشر. إننا نعرف أن الرب يعتني بهؤلاء الذين رحلوا، ولكن هل يفعل نفس الشيء مع الكلاب؟. علمت أن مای سبكبنز تزوجت. إني سعدت فعلا برؤية فيولا مرة أخرى".

وفي يومية أخرى في نفس الشهر: "لم يعد لي أحد، سوى قريبة لنا في سياتل، العمة إيلين، يجب أن أذهب إليها رغم أني لا أحب أمريكا، ولكن سأمكث على الأكثر شهراً أو شهرين ثم أعود. سأفعل ذلك بعد أن أتقاضى ثمن المنزل تماما".

في ٢٥ نوفمبر: "انطلقت بنا السفينة من ميناء روتردام، وانطلقنا بعد ذلك في المحيط".

وراحت تتحدث اليوميات عن رحلتها في البحر حتى وصلت سياتل في ديسمبر، وراحت تصف برودة الجو، وتصف معالم المدينة، وهي تتساءل يا ترى كيف تبدو العمة إيلين؟

ومضت الأعوام وظلت مع عمتها إيلين حتى ماتت عام ١٩٥٢، وفي خلال هذه الفترة لم تذكر شيئا مهما عن وجودها في سياتل. لم تقم أي علاقة من أي نوع. ولم تذكر شيئا ذا بال إلا عن حرب كوريا عام ١٩٥٠، وما ذكرته هو أنها تمنت لو أنها في انجلترا في ذلك الوقت لكي تلتحق بالبحرية، ولذلك أرسلت طلبا للبحرية من هناك تلتمس الالتحاق، ولكن جاءها الرد بعد شهر تقريبا بالرفض أيضا. وأخذت تقص في يومياتها كيف تدهورت حال عمتها وكيف خضعت لعملية جراحية.

كانت عمتها قبل أن تموت قد كتبت وصية بترك كل شيء لجانيت. وبالتالى جانيت فكرت فى بيع كل شيء، وأن تعاود الاتصال بالبحرية ربما تقبلها، ولكن كان الرد كالعادة، لا نريد أحداً. ففكرت فى العودة إلى إنجلترا ولكن ماذا تفعل هناك؟.ماذا تفعل، قالت: "كل من أحب قد ماتوا بداية من بيل، وديف، وأبى، وأمى، وها هى عمتى، وكأننى يجب أن أدفع ثمن هؤلاء الذين قتلتهم، ولو عن طريق الخطأ. ماذا لو استقر هنا، فى أمريكا، مثل أى إنسان يتزوج وينجب ويعيش حتى يموت؟

بدأت بعد ذلك تحكى عن حالتها النفسية الكئيبة، وكيف أنها تذكرت أن الطبيب الذى أشرف على علاجها النفسى عندما كانت فى البحرية يقطن فى أمريكا، وكيف اتصلت به وذهبت إليه وعرضت عليه مشكلتها، وكان قد تذكرها جيدا. بعد أن استمع لها الطبيب ووصف لها العلاج المركب من الصيدلية، وتكرر اللقاء ثلاث مرات. ثم أرسل لها بعد ذلك خطابا كان له تأثير كبير عليها. لقد وجدت الخطاب بين الأوراق وكان الخطاب يقول:

تاكوما

الأول من يونيو ١٩٥٢

عزيزتى الآنسة برنتيس

"لقد عكفت على دراسة حالتك ليومين، فأنت ليس لديك أى مشكلة نفسية خطرة. كل ما فى الأمر هو شعور بالذنب، والندم تجاه بيل. كان حلمك هو الزواج والاستقرار معه. وكنت تحرصين ألا تخبرى أحداً عن هذه العلاقة فيما مضى، أما الآن فالموقف مختلف. وأرى لكى تتخلصى من هذه الحالة ربما يكون فى الاندماج مع والديه وتقديم يد العون لهما، لأنهما كبار فى السن، على حد قولك. وبذلك تتخلصين من الإحساس بالذنب والندم .

فى اليومية التالية أخذت جانيت تفكر فى ما قاله لها الطبيب، محدثة نفسها: "هل أراسل هؤلاء الناس؟ وماذا أقول لهم؟ هل أنا كنت سأتزوج من

ابنكم، وكيف يكون رد فعلهم بعد هذه السنين؟ ولكن كلام الطبيب ربما يكون أصح، وهو أن أذهب إلى أستراليا، وأحاول أن أقترب من الأسرة وأعرف أحوالها ولو أنها فى حاجة لى سأقدمها. ربما أجد هناك آلان شقيق بيل، أو أخته هيلين. وها هى فرصة أتفرج على أستراليا وأرى مزارع الغنم، وكيف يمتطى الرجال الأحصنة بقبعاتهم، وعصيهم الملتوية والرجال السود. بلا شك ستكون الرحلة رائعة، ستأخذ شهرا تقريبا فى المياه، من هنولولو، وفيجى، ونيوزيلندا ثم سيدنى."

فى الصفحة التالية راحت تحسب حالتها المالية، إذ معها ثمانية عشر ألف دولار ثمن بيت عمتها الذى باعته، ومبلغ ثمانية آلاف جنيه إسترلينى جاءت به من بريطانيا. وذكرت أنها تلاقت مع الطبيب مرة ثانية حيث قامت بفحص طبى، وأخبرته أنها ستذهب إلى أستراليا وتتحسس الأمر من بعيد، ولربما تقابل آلان وتطمئن على والدى بيل. وبعد ذلك ستعود مرة أخرى لكى تستقر فى سياتل، ولكى ترى ماذا فعل المحامون فى باقى العزبة التى تخص عمتها. وأضافت أن الطبيب طلب منها مقابلته فور عودتها من أستراليا.

لا شىء يلفت الانتباه فى اليوميات منذ أن استقلت سفينة من الميناء الغربى، حتى وصلت سيدنى باستثناء أنه فى سوفا ركب عروسان قاصدين سيدنى، ومنهما عرفت ما تريد أن تعرفه عن البلد الذى هى ذاهبة إليه. عندما نزلت فى سيدنى دلاها على الطريقة التى يمكنها أن تتنقل بها فى المدينة، وأخبراها أنه من السهولة أن تجد عملا فى هذا البلد، وذلك عن طريق باب الوظائف الخالية فى الجرائد، حيث إن كثيرا من الفتيات الإنجليزيات يعملن هنا أثناء رحلاتهن الترفيهية. وبمرتبات مجزية. وأن خير وسيلة للتجوال هى الأتوبيس. وسألتهما عن الحى الغربى حيث تقيم أسرة بيل، فأرشداها على الطريق الذى يمكنها أن تسلكه.

ذهبت إلى فندق متروبول، وعلمت فى الفندق أن هناك نقصا حاد فى العمالة ذات الخبرة فى كل الفنادق تقريبا.

كانت سيدنى مدينة نشطة، وهى تشبه سياتل إلى حد ما فى مظهرها. نظرت فى الخريطة لأتعرف على مكان بالارات، وهى مدينة يمكن الوصول إليها عن طريق ميلبورن.

فى الصباح استقلت الأتوبيس وذهبت إلى ألبيرى، على حدود نيو ساوث ويلز. وهى مدينة ثرية، مليئة بالفنادق والمحلات الفخمة. تركت حقائبها فى أمانات محطة الأتوبيس، وراحت تتجول فى المدينة بحثا عن عمل. فى خلال نصف ساعة كانت قد عملت جرسون فى فندق سوينى هوم، وأقامت فى غرفة مشتركة مع فتاة هولندية، آنا، وبعد ساعة ونصف كانت تقدم وجبة العشاء.

سألتنى سوينى عن اسمى فقلت لها جيسى بروكتر، ورأيت ذلك أنسب حيث الحروف تتفق مع حروف اسمى الأولى التى على الحقيبة، وخشيت أيضا أن يكون آلان تحدث مع والديه عنى وذكر لهما اسمى.

ظلت هكذا لمدة أسبوعين، وكان العمل شاقا إذ كانت مسئولة هى وآنا عن اثنتين وعشرين غرفة، وتقديم الوجبات، وبعض الأعمال فى المطبخ. الأمر الذى أعطاها خبرة فى مجال العمل.

استقلت الحافلة لتذهب إلى بالارات، وأقامت فى طريقها ليلة فى ميلبورن، ووصلت هناك، وفعلت ما فعلته فى البيرى من قبل. راحت تبحث عن عمل حتى وجدت عملا فى فندق كورت هاوس. بحثت عن كومبارجانا على الخريطة فوجدتها عبارة عن نقطة صغيرة جدا بجوار نقطة أكبر هى فورفار. لا يوجد فى فورفار إلا فندقان، أحدهما بوست أوفيس، وهو يحتوى على ثمانى غرف تقريبا. رحت أفتح عينى ,وأتشمم فى الفندق عسى أن

أسمع شيئا عن كومبارجانا، ولكن بدون جدوى. فقررت الذهاب إلى هناك فى نهاية الأسبوع.

تركت حقيبتين من حقائبها الثلاث فى محطة أتوبيس بالارات، وانطلقت بالأتوبيس إلى فورفار. كنت أعتقد أن كومبارجانا قرية، ولكن اتضح أنها عزبة مساحتها تقريبا أربعة عشر ألف فدان، وبها منزل كبير، وعدد ضخم من الأغنام. كانت أسرة دونكان واحدة من الأسر العريقة هناك، وكانت السيدة كولين تطلق على دونكان الكبير الكولونيل، وهو على ما أعتقد والد بيل.

حجزت فى فندق بوست أوفيس، وسألت بعدها السيدة كولين عن عمل، وأخبرتها بأن لى خبرة فى العمل الفندقى، وأنى أعمل من أجل الرحلة، وأنى فى طريقى إلى أديليدا. فردت على بأن الموسم انتهى، ولكن يمكننى العمل بأجر بسيط مع الإقامة إذا كنت أوافق على العمل فى البار. ورغم أنى لم أعمل فى البار قبل ذلك إلا أننى قبلت العمل.

جاء رجلان فى المساء، وربطا حصانيهما فى الخارج، كما كنت أرى فى الأفلام، ودخلا البار، وبعد أن احتسيا كمية كبيرة من البيرة، استعدا للرحيل، فسألتهما عن كومبارجانا، فأخبرانى عن كل شىء عنها.

وتساءلت،". كم أنا غبية، ماذا بوسعى أن أفعل من أجلهم؟

الأول من سبتمبر: "رأيت والد بيل اليوم. كنت أنظف البار فإذا برجل يخرج من سيارة كبيرة متوجها إلى البار ليسألنى: أين السيد كولين؟ فأجبته بأنى سأذهب إليه وأبلغه بوجودك. وبالفعل جاء السيد كولين، وقدمنى للكولونيل بأنى فتاة أنجليزية جئت أتنزه فى أستراليا، وأعمل خلال الزيارة. سألنى من أين فى انجلترا فأجبته: لندن . ثم راح يتحدث مع السيد كولين فى شئون محلية إذ كان هو رئيس المجلس المحلى. رجل فى السبعينيات،

يبدو شاحبا بعض الشيء، إنه يشبه آلان أكثر من بيل. وغادر المكان بعد أن احتسى كأسا واحدة من الويسكى".

ومضت فى اليوميات تقص كيف أن السيد كولين حدثها عن أسرة الكولونيل، وكيف حدثت لى حادثة فقدت فيها قدمىّ، وكيف لقى بيل مصرعه، وكيف أن هيلين تعيش فى لندن. وأن السيدة دونكان، والدة آلان، مصابة بالتهاب المفاصل، وأنها لم تعد تخرج بسبب ذلك. وكيف أنها محبوبة فى المكان كله لأنها كانت تشرف على مدرسة لأطفال المنطقة، ولكنها توقفت منذ مرضها.

الثانى من سبتمبر: "جاء إلى مطعم الفندق رجل وامرأة يبدو أنهما من ليتوانيا أو ما شابه ذلك. كان الرجل نحيلا، أما المرأة فبدينة. بعدما رحلا قالت لى السيدة كولين: إنهما كان يعملان لدى أسرة الكولونيل، ولكنه طردهما لكونهما دائما فى حالة سكر وكسل. وإنه لدى الأسرة طباخة قديمة معهم، ولكن طاقة المنزل أكبر منها. وقالت إن الفتيات كن يعملن لدى الأسرة ولكن منذ أن انتهت الحرب توقفن عن العمل فى المنطقة ورحن يعملن فى المدينة بأجر أكبر لوجود سنيما ".

الثالث من سبتمبر: "جاء السيد فوكس، ساعى البريد، وهو من إنجلترا جاء صبيا ليستقر فى أستراليا. ولما علم أنى من إنجلترا، وأنى جئت بغرض الفسحة عرض على أن أذهب معه فى جولة أثناء عمله لكى يرينى مختلف معالم البلد. وافقت على ذلك بعد أن استأذنت من السيدة كولين وعلى أن أقوم بما لدى من نظافة قبل ذهابى مبكرا مع السيد فوكس".

الرابع من سبتمبر: "قبلت أن أعمل فى كومبارجانا لفترة أسبوع أو اثنين حتى يحصلوا على رجل وزوجته يعملان لديهم. وتمنيت أنى لم أقبل، ولكن الأمر انتهى وسأبدأ الجمعة القادمة".

ذهبت مع السيد فوكس، ورحنا نزور تقريبا كل مكان حتى وصلنا كومبارجانا. وهى عبارة عن منزل انجليزى قديم، أو قلعة قديمة. ويقع على النهر، وتحيطه الأشجار بمختلف أنواعها، وكذلك شجيرات الزهور.

دخلنا من الباب الخلفى حيث استقبلتنا الطاهية، آنى، وأخذتنا للمطبخ لنتناول بعض الشاى. عندما قدمنى السيد فوكس لها وعرّفها أنى من لندن سألتنى فورا إذا كنت قابلت آلان. الناس فى المزرعة يقدرون آلان جدا.

بينما نحن جلوس فى المطبخ تحدث السيد فوكس عن الزوج والزوجة السابقين وسأل عما إذا كان أحضروا بدلا منهما أم لا. فأجابت آنى بأنه لا يأتى إلا الأوباش الآن، وأنها تفضل العمل بمفردها على أن تعمل مع مثل هؤلاء، وأن الست الكبيرة فكرت فى أن تجلب فتاة هولندية، وربما كان ذلك أفضل.

لقد أحببت آنى فوجدتنى أقول: "يمكننى أن أعمل لمدة أسبوع أو أسبوعين إلى أن تجدوا البديل"، لا أدرى لماذا قلت ذلك، فهى زلة لسان، وبدأت أتملص منها بقولى: "ولكنى لا أستطيع أن أترك السيدة كولين، وفى نفس الوقت أنا فى طريقى إلى ايدليدا". فقالت آنى، تستطيع الست الكبيرة أن تتفق مع السيدة كولين. ثم أضافت ورغم أنها راقدة فى غرفتها إلا أنها تستطيع أن تقابلك. هنا قال السيد فوكس امكثى براحتك، وأمر عليك فى طريق عودتى لكى آخذك.

أخذتنى آنى فى جولة فى المنزل قبل أن أقابل الست الكبيرة. كانت غرفة نومهما فى الطابق السفلى، حيث كانت غرفة بلياردو، لأن الست لا تستطيع أن تصعد السلم، وأيضا كان فى الطابق نفسه مكتب الكولونيل. أما الطابق العلوى فكانت به غرفة آلان. وكانت آنى تقطن فى الغرفة التى أعلى المطبخ، وأرتنى كذلك الغرفة التى سأقيم فيها.

قابلتنى الست الكبيرة فى الصالة، كانت تشبه بيل إلى حد بعيد. سألتنى عن نفسى فأجبتها بالقليل، وعرفتها بأنى أتجول حول العالم، وأنى أعمل أثناء تجوالى. فطلبت منى أن أتناول الغداء مع آنى، وأخبرتنى بأنها ستتكلم مع السيدة كولين فى أمرى وترد على بعد الغداء.

بعد أن تناولت الغداء استدعتنى الست الكبيرة وأخبرتنى بأنها سوت الأمر مع السيدة كولين، وبالتالى يمكننى أن أجىء يوم الجمعة. ورأيت الكولونيل، فابتسم لى وتمنى أن أكون سعيدة فى المنزل، وأخبرنى بأنه يمكننى أن أذهب إلى إلى مكان فى وقت الراحة.

جاء فوكس وعدت معه إلى الفندق، وطلبت أن أذهب لكى أحضر حقائبى من بالارات. وأخذت أفكر: "إنها تشبه بيل، إنه أمر صعب عليّ.

الثامن من سبتمبر: "جاءنى كبير الخدم، هارى، وأخذنى من فورفار. وضعت حقائبى فى الغرفة التى أرتنى إياها آنى، وغيرت ملابسى وارتديت زيا يناسب العمل، وبدأت العمل. وبعد أن انتهيت من تقديم العشاء، ومن تنظيف المطبخ صعدت إلى غرفتى وأخذت أتأمل تلك المساحات الشاسعة، والمنزل الفخم الذى يطل على ذلك النهر وتلك المروج الخضراء. وعرفت هنا بيل غير بيل الذى عرفته فى الجندية، وكيف كان مختلفا نتيجة للتربية والمكان الذى عاش فيه"..

توقفت عن القراءة، ووضعت الأجندة جانبا، وأشعلت فى النار، وكانت الساعة الرابعة صباحا. أغلقت النافذة وأشعلت الغليون، ورحت أتأمل فى الكلام الذى ذكرته جانيت.

بعد برهة من الزمن عدت لليوميات التى أصبحت غير منتظمة فى كتابتها، تقريبا حسب أهمية الأحداث.

الثالث عشر من سبتمبر: "هناك صورتان لبيل معلقتان فى غرفتها - إحداهما وهو يمتطى حصانا ولم يزل صغيرا فى السن، والأخرى قد أخذت

فى ستدديو. كنت أتمنى الحصول عليهما ولكن لا يمكن. كان الحديث عن بيل منعدما، فقد حدث ما حدث منذ ثمانى سنوات، بينما كان الحديث يدور حول آلان. وكلهم يتمنى عودته وزواجه واستقراره هنا، لأن هذه العزبة فى حالة عدم وجوده ستباع بعد وفاة الكولونيل. فى الوقت الذى يقطن جميع العاملين والخدم فى العزبة ويستفيدون من الكهرباء والصرف، بل الأجر المرتفع الذى يسر لكل واحد منهم سيارة وإقامة مريحة".

السادس والعشرون من أكتوبر: "الجو دافئ، والسيد والسيدة دونكان غير موجودين فى المنزل، ذهبا إلى ميلبورن. النوافذ كلها مفتوحة لكى يدخل الدفء. ومرة أخرى راحت آني تتحدث عن آلان وكيف أن والديه فى حالة اكتئاب بسبب عدم زواجه، وتمنيا لو أنه تعلق بإحدى صديقات هيلين وتزوجها، ولكنهما أرجعا عزوفه عن هذا إلى كونه عاجزا بعد بتر قدميه. ولكن آنى تجزم بأن آلان يحب فتاة فى إنجلترا لأنه لم يرتح لوجوده فى كومبارجانا، ولم يهدأ له بال حتى سافر إلى إنجلترا".

الثامن والعشرون من أكتوبر: "بعد يومين عاد السيد والسيدة دونكان من ميلبورن، وكانت حالتهما أفضل، وإن كانت الست الكبيرة قد أحست بالإرهاق، فنصحتها بملازمة السرير طوال اليوم. فى ذات اليوم تلقيا خطابا من آلان، فهو لا يرسل خطابات كثيرا."

لم ألمح فى اليوميات أى ذكر عن رغبتها فى الذهاب إلى أديليدا، ولا عن زوجين يتسلمان العمل بدلا منها. لقد كان طبيبها مصيبا فى تحليل حالتها النفسية، إذ رأى أنها فى حاجة إلى أن تهتم بشخص ما. فها قد مرت ثلاثة شهور، وقد توطدت علاقتها بأمى حسب ما قالت فى يومياتها.

الحادى عشر من ديسمبر: "ذهب الكولونيل اليوم إلى بالارات، وتناولت الست الكبيرة العشاء بمفردها. وأخذت تقلب فى أشياء أخرجتها من أدراج المكتب. ورحت أقدم لها القهوة، فنادتنى وهى تمسك بصورة فى يدها وقالت

لى : هذا ابنى ويلى، بيل، هذه صورته قبل أن يذهب للحرب مباشرة. بيل شاب يحب أن يظل فى العزبة، لو أنه عاش لقام بكل هذه الأعمال، غيرآلان الذى يحب أن يلتحق بالقانون. بيل لقى مصرعه فى نورماندى، قبل الغزو مباشرة، وتوقفت لحظة، ولكنى تمالكت نفسى، وقلت لها كفى هذا المساء حديثا عن ابنك".

ثم فى يومية أخرى :

الخامس من يناير: "اليوم هو يوم راحة بالنسبة لى، فأحسست بالرغبة فى استنشاق هواء نقى، طلبت من هارى أن يأخذنى معه فى مطاردة الأرانب الوحشية. صعدنا فوق بعض التلال، ومعنا بعض الرجال، وهناك بدأوا يستخدمون المحراث والشوك العملاقة لحفر الأرضيات والتنقيب عن مأوى الأرانب وتقليبها. وكان معهم بندقية صيد، فطلبت منه استخدامها، فنظر إلى بارتياب وسألنى هل استخدمتها قبل ذلك؟ فأجبته بالإيجاب. أخذت البندقية وأصبت أكثر من هدف. فاستغرب الجميع وسألونى أين تعلمت ذلك، ولكن لم أجبهم. وفى طريق العودة عندما ظن بعض الرجال أن ما أصبته مصادفة طلبوا منى التصويب على زجاجة بيرة فارغة من مسافة. فوضعت بدل الواحدة ثلاث زجاجات، وأصبتها جميعا فى ثلاث طلقات متوالية. وقلت مازحة إذا أردتم أن تصطادوا شيئا بالتصويب فاستدعوا فتاة انجليزية. فى المنزل جعلنى هارى أنظف البندقية وألح على معرفة أين تعلمت التصويب، ولكن أصررت على عدم الإجابة"

ووجدت أن اليوميات تتعدى أياما كثيرة بدون تدوين، وما دونته فى اليوميات الأخرى أشياء روتينية تدور كلها حول العمل اليومى وحديث أمى معها عن أمور منزلية. ولكن توقفت بعد ذلك أمام يومية فى أحد أيام الشتاء لها بعض الأهمية.

السادس من مايو: "كان الجو باردا جدا، وكانت هناك نتفات من الجليد تكسو الأرض. كنت أظن أن أستراليا بلدا دافئ، ولكنه خو كذلك فى الصيف أما فى الشتاء فهو غير ذلك، وإن كان الجو فى الوقت الحالى منعشا.

عمت الأسرة أنباء مفرحة، إذ وصل خطاب من آلان يفيد بأنه سينتهى من ارتباطاته فى إنجلترا فى سبتمبر ولذلك حجز ليتحرك من هناك فى أكتوبر، يعنى سيصل أستراليا فى أول نوفمبر.

بهذه المناسبة احتفلوا فى العشاء، وجهزت لهم الشامبانيا، وتناول الكافيار والمشروم، وشغلوا الموسيقى. إن آلان لم يحضر منذ خمس سنوات، وها هو سيحضر ليستقر فى كومبارجانا نهائيا لكى يدير العزبة. لكم أنا سعيدة من أجلهم. وسعيدة من أجل آلان. لم أر الخطاب الذى أرسله، ولكنها تحدثت عنه وقالت بأنه سيحصل على إجازة القانون ولكن لن يعمل بها، فهو يفضل البقاء هنا وإدارة العزبة. ولقد عبرت عن رغبتها لو أنه وجد من يتزوجها.

يجب أن أرحل من هنا قبل أن يأتى آلان، لأنه سيعرفنى. ولكن لن أذهب الآن، سأرحل قبل أن يأتى بأسبوع أو اثنين، فهم لن يحتاجوا لى إذا حضر، فسيقوم بكثير من الأعمال التى أفعلها. وسيستطيع أن يأتى بخدم للمنزل.

وعلىّ أن أذهب أولا إلى سياتل لكى أحصل على ممتلكات عمتى، ثم أرسل للبحرية مرة أخرى، لأنه لو فشلت المفاوضات بشأن نزع السلاح فى الحرب الكورية، ستندلع حرب أكبر قد تشمل أمريكا والصين وروسيا واليابان وإنجلترا وغيرها من الدول، وبالتالى سيكونون فى أمس الحاجة للبحريات التى تركن الخدمة. من المؤسف أن أترك مكانا مثل هذا."

التاسع والعشرون من مايو: "طلبت منى أن أجهز غرفة آلان، الوقت مبكر جدا، ولكنها صعدت إلى أعلى، وتفحصت الغرفة، وطلبت منى أن أقيس الستائر والأفاريز الخاصة بها، وأن أخرج الملابس الحربية التى كان

يحتفظ بها، والتى كانت فى النفالين. وقصدت أن تذهب لتشترى كل شىء جديد، وعندما أرادت أن تغير لون الحوائط أقنعتها بأن الغائب حينما يعود يريد أن يجد كل شىء كما تركه لكى يشعر بالحنين، وما كان علىّ إلا أن أنظف ورق الحائط القديم الذى لايزال يبدو معقولا. ودخلت الحمام المشترك الذى بين هذه الغرفة والغرفة الأخرى التى كانت خاصة ببيل، ولكنها تحولت الآن إلى غرفة ضيافة إضافية. حسبت التكاليف اللازمة لشراء أشياء جديدة لتجديد الغرفة فوجدتها ثمانمائة جنيه. إنهما يعيشون بشكل اقتصادى فى الصرف على أنفسهم رغم أنهم يسرفون على الحدائق والعزبة."

توقفت عن القراءة قليلا فكل اليومية تدور حول تجديدات الغرفة وشراء ستائر وسجاجيد جديدة، وانتقلت لصفحة جديدة.

العشرون من يونيو: "حجز الكولونيل سيارة لاندروفر خاصة لآلان، على أن تكون فى المتناول فى موعد أقصاه شهر قبل وصوله. فهم لم يعودوا يستخدمون الأحصنة فى العزبة، إلا خيالة الحدود. وكان الكولونيل يتجول فى العزبة بسيارته اللاندروفر، ولكنه أراد سيارة خاصة لآلان تتناسب مع وضعه الجديد. عندما تحدثت مع آنى بصدد هذا قالت لى بطريقتها المعتادة إنهم يوفرون له كل شىء يرغب فيه ماعدا شيئا واحدا"، فسألتها ما هو "فردت الزوجة" إنها ثاقبة النظر.

العاشر من يوليو: "عاد الكولونيل والست الكبيرة من ميلبورن، واشتريا كل شىء، فأحضرا معهما ما يمكن إحضاره، وحجزا ما يحتاج إلى وقت. رغم أن الطقس بارد، إلا أنها فى غاية النشاط منذ أن عرفت بأن آلان سيعود، وصارت تستيقظ مبكرا وتخدم نفسها فى الإفطار. وقالت لى : "يجب أن تهتمى بآلان عندما يعود" وكأننى خادمه الخاص. وراحت تلقى التعليمات عن كيف أجهز له ملابس الصباح، وكيف حينما يخلعها أنظفها وأقوم بعمل أى شىء لازم بها ثم أضعها فى الدولاب، وأن أفعل المثل مع

ملابس المساء. حاولت أن أخبرها بأنى لن أكون هنا عندما يعود آلان، ولكن لم أستطع، فلم أعد ما سأقوله لها.

كم أرغب فى رؤية آلان، فهو شخصية عظيمة. ولا أدرى ماذا أفعل لو أنى تركت هذا المكان، فأنا أشعر بالراحة هنا. أتمنى لو أن محادثات السلام فى الحرب الكورية تفشل وحينئذ تندلع الحرب وأعود للبحرية، وأستطيع أن أخبرها وقتها أنى بحرية احتياط ويجب أن أعود، وبالتالى لن ألجأ للكذب.

الثانى والعشرون من يوليو: "لكم أتمنى لو أنى قابلت آلان قبل وصوله إلى المنزل! لشرحت له الموقف بالضبط، وينصحنى ماذا أفعل. ويضع كل شىء فى مكانه الصحيح. ولكن إن لم أقابله فيا ترى ماذا سيفعل حينما يرانى فى المنزل فجأة أتخيل أنه سيقول: "أهلا بفتاة البحرية، ماذا جاء بك إلى هنا؟، لقد انتهى كل شىء منذ أن مات بيل".. ولكن آلان لن يقول ذلك بالضبط، بل شيئا شبه ذلك. لا أدرى ماذا أفعل.

الثامن والعشرون من يوليو: "لقد انتهت الحرب الكورية، ووقعوا اتفاقية سلام، من المفترض أن أفرح بذلك، ولكن لن أذهب للبحرية، فلن يحتاجوا أى بحريات بعد ذلك. ولا أعرف أين أذهب، فليس أمامى شىء أفعله، وليس لى أحد أذهب إليه، ولابد أن أفكر فى شىء أفعله."

وضعت الأجندة جانبا، ووضعت مزيدا من الحطب فى المدفأة. ورحت أفكر فى جانيت، فهى كانت تعتمد كلية على نشوب حرب، والآن لا حرب، فماذا ستفعل؟. عدت بعد برهة للأجندة وأنا متردد، لا يجب أن أطلع على أسرارها وخبايا نفسها، ولكنى مضطر أن أفعل ذلك لكى أعرف ماذا حدث.

السابع عشر من أغسطس: "سيبحر آلان بعد ستة أسابيع، ولم أعرف ماذا أفعل، لقد تركت الأمر ربما يظهر شىء جديد. لو أنى أرسلت له خطابا

فلن أستطيع أن أطلب أن يخدع أمه من أجل خادمة تعمل عندها، علاوة على أن آلان، كما يقول الجميع، قد تغير عما رأيته منذ تسع سنوات. ولكن لو قابلته سيكون الأمر مختلفا، أستطيع أن أتحاور معه وأقنعه. وكيف أذهب إليه فى الميناء وأبوه سيذهب لاستقباله؟، وحتى لو لم يذهب أبوه هل سيسمحون لى أن آخذ اليوم إجازة وهم فى أمس الحاجة لى فى ذلك اليوم؟

الخامس والعشرون من سبتمبر: "سيبحر آلان فى خلال أيام. صباح أمس بينما كنت أقوم بتنظيف غرفة الطعام وجدت نفسى بجوارغرفة المطبخ، وكان بابه الدوار الداخلى مفتوحا، فسمعت آنى ومساعدتها بولدين تتحدثان عن آلان وأن الكولونيل والست الكبيرة مسروران جدا بقدومه. وقالتا إنهما يتوقعان أن يتزوج آلان من فتاة تدعى سيلفيا هولز، يمتلك أهلها مزارع كبيرة مجاورة لهم، ثم تحركت إلى الصالة وأنا متيقنة أنهما لم يحسا بوجودى.

الآن اتضح كل شىء، فهذا السر الذى كنت أشعر به من اهتمام نحو آلان وجعلنى أريد البقاء فى كومبارجانا، والذى لم أتخل عنه. هناك أشياء من الصعب أن تستيقظ على حقيقتها.

لقد كنت أخدع نفسى. تخيلت أنى أستطيع أن أقابل آلان فى الميناء، وأحدثه من القلب، ثم أعود كومبارجانا لأعيش فيها زوجة له، تخيلت أن كل واحد سيسعد لو أنى تزوجت آلان. إن الحياة فى كومبارجانا حياة هادئة، وسالمة، وثرية.

إنها ليست قصة خيالية، وليست قصة الملك كوفيتوا والخادمة المتسولة. إنها قصة مختلقة لخادمة متسولة تقص على الملك كوفيتوا حكاية مختلقة مثيرة للشفقة لكى يقع فى حبها ويخرجها من المطبخ، وتصبح ملكة تتعالى

على بقية الخدم، وتعيش فى رغد باقى حياتها. ولكن النهاية ليست سعيدة، ولا لهذا الملك كوفيتوا الذى سيكتشف أنه وقع فى فخ.

آه يا بيل، ما الذى أدخلنى فى هذه الورطة؟

العاشر من أكتوبر: "لقد أبحر آلان منذ خمسة أيام، وهو كل يوم يقترب لكى يرسو فى فريمنتال ثم يأتى عن طريق الجو إلى هنا. أى هناك حوالى ثلاثة أسابيع حتى يصل هنا. لا مفر من ذلك، فسوف أقابله على أية حال، سواء هنا أوفريمنتال. هناك شىء مزعج من جهتى، فأعلم أنى عندما سأقابله سأرغب فى أن يقع فى حبى. ولكن لا معقول، فأنا أفكر فى ذلك لأنى أرغب فى البقاء فى كومبارجانا.

إنى أحببت بيل، ومازلت أحبه، ولا أعلم أن أرته فاحشة الثراء، فقد كان بالنسبة لى بيل، فقط بيل. ولكنى الآن أحاول أن أعوضه فى صورة أخيه، إنى أخدع نفسى بأنى أحببته. يجب أن أستيقظ على الحقيقة. يجب أن أنظر فى الكاس بتمعن. فامرأة تقريبا ليست جميلة، وليست صغيرة فى السن، كانت تحب أصلا أخا، وتخطط أن تقع فى حب أخيه، الوارث الوحيد للممتلكات. ولكن ليس هناك شىء فى الأفق يدل على أن الخطة ستنجح. إننى أضحك على نفسى كما كنت أفعل طوال الأشهر القليلة الماضية.

أسوأ ما فى الأمر أن هناك شيئا حقيقيا يجعل الأمر برمته مخادعا. لقد اعتززت بآلان بالفعل عندما قابلته للمرة الأولى منذ تسع سنوات. إنى أنظر فى الأجندة الآن وأرى ما كتبته عنه كأول انطباع، بأنه كان رائعا، ولازال كذلك، وأرغب فى أن أراه مرة ثانية. ولكن هذا ليس له علاقة بأنى أحببته، فكيف أحب رجلا قابلته مرة واحدة فى الوقت الذى كنت غارقة فى حب أخيه؟.

لا مفر من هذا الموقف، لا أستطيع أن أقابله، كيف سأشرح له مجيئى هنا، وماذا أريد، هل أريد أن أظل زوجة، أم خادمة، أم صديقة؟. نعم أريده

أن يحبنى ويتزوجنى، ولكن أعلم أن ذلك لن يسعده، وأنه يجب علىّ أن أرحل من المكان. لا مفر".

السابع عشر من أكتوبر: "طلبت يوم راحة، ورحت أتجول فى كومبارجانا، لكم هى جميلة. رأيت الناس يقصون الشعر، ويعملون كخلية نحل.

أخذت يوما راحة لكى أصفى ذهنى من أى تفكير لأن ما سأقدم عليه لا يمكن الرجوع منه إذا تم. فالشىء الوحيد الذى يمكننى فعله الآن هو أن أهرب إلى انجلترا أو إلى أى مكان آخر وأبدأ من جديد. ولكن أرى بقائى هنا أفضل.

ماتزال معى نقط العمة إيلين القاتلة، زجاجة كاملة. لا بد أنها ذات مفعول فكان الاسم معروفا وشائعا فى صحف سيتيل حينما يلجأ إليه أى ممثل انتهى. وهكذا سيكون كل من قتلوا فى المقاتلة الخطأ قد تم تعويضهم.

آلان سيحضر يوم الجمعة فى فريمنتال، وأرى من المفترض أن يتم ذلك يوم الأحد، لكى ينتهى كل شىء وينسى قبل أن يأتى آلان إلى المنزل".

الثالث والعشرون من أكتوبر: "أخذت جولة فى الحديقة، وكانت الزهور متفتحة، فقطفت زهرة أزاليا حمراء فى طريقها للتفتح. سألتها هل يمكن أن أضعك فى غرفة آلان؟ فأجابتنى بالإيجاب. أخذت الزهرة وعدت إلى المنزل واتجهت إلى غرفة آلان، ووضعت الزهرة فى أصيص أزرق، وقلت بأنها ستكون قد تفتحت وازدهرت عند قدوم آلان".

انتهت اليوميات عند هذا الحد، ووجدت بالفعل الزهرة مزدهرة على طاولتى فى الغرفة.

لقد خمدت النار فى المدفأة تماما، وبزغ ضوء الفجر من النافذة خلفى. أغلقت الأجندة، وأعدتها فى الحقيبة بعد أن أعدت ترتيب الأشياء، وبينما أفعل ذلك لفت نظرى الدفتر البنكى، لديها مبلغ كبير من المال فى إنجلترا

وسياتل، ولكن ما عساى أن أفعل به؟. تمشيت حتى النافذة، وفتحت الضلفتين، ورحت أتأمل فى المنظر الذى أمامى، ونسيم الهواء البارد يداعب دفء الغرفة. كان المنظر أمامى بديعا، بين المروج والنهر الذى يجرى بينها، المنظر الذى أحبته هى، وبيل وأنا، كلنا أحببناه. كان من الممكن أن تكون سيدة فى هذا المنزل مرتين، ولكن لم يكن.

عدت من النافذة بعد فترة كطويلة من التأمل، وأخذت عكازى ورحت أتمشى. كان المنزل صامتا تماما إلا من دقات ساعة أبى المعلقة فى الصالة. لم يكن هناك من أحد مستيقظا. حتى فى هذا المكان النائى الهادئ كان للحرب أثر، وكأنما ذراع أخطبوط امتدت لتضرب فى هذا المكان فأصابت هذه الفتاة بالموت. وكأنما وحش شيطانى مازال ينفث سمومه المميتة. هكذا الحرب تستمر فى قتلها الناس لمدة طويلة بعد انتهائها.

توقفت فى الصالة ناظرا إلى تلك الزهور التى رتبتها الفتاة، وغرفة الطعام التى نظفت ورتبت أثاثها، والفونوغراف الذى كانت تديره لأمى بالموسيقى التى تحبها.

ارتديت معطفا فوق ملابسى، وخرجت متمشيا حتى وصلت إلى النهر وجلست على ضفته. ستكون الوحدة هى مؤنسى الوحيد بعد ذلك فى كومبارجانا، ومع كل شىء وضعت لمساتها فيه. لقد كنت وحيدا فى المنزل قبل ذلك عندما رجعت من الحرب عام ١٩٤٤، وقد وجدت كومبارجانا صعبة أن أعيش فيها، ولكن الآن وجانيت برنتيس فى مخيلتى فقد وجدت أنه من المستحيل العيش فيها.

رحت أتمشى على الضفة حتى أرسلت الشمس أشعتها، ورأيت بعض العمال الذين لا أعرفهم، ولكنهم يعرفوننى جيدا ويعرفون كل شىء عنى، وبدأت كل كومبارجانا تستيقظ.

كان العمال الذين يعملون فى العزبة يحيوننى وكأن فى نظراتهم تساؤلات، هل سأستقر فى العزبة، أم سأبيعها، أم؟ وكان قلقهم على كيفية العيش وهم فى سلام واستقرار. وكنت أثناء ذلك أشعر بأنى فعلا أحببت جانيت برنتيس.

وقفت أمام النهر والفكر يشغلنى، والناس يلقون علىّ التحية، وأنا أردها شارد الذهن، واكتشفت أنى مازلت بملابس البيت، فعدت أدراجى إلى المنزل.

كانت آنى ترقبنى من نافذة المطبخ، وقابلتنى فى الصالة: "أحضر لك شاى يا سيد آلان". ثم أردفت باستغراب: "ألم تنم لغاية هذه اللحظة؟ فأجبتها: "لا، لم أنم".

ثم قلت". لقد وجدت الشنطة".

- صحيح؟

قلت وأنا أحدق فى عينيها: "أتعرفين من كانت؟ إنها فتاة بيل.

فقالت بعد فترة صمت، مندهشة: "لم أكن متأكدة، ولكنى شعرت بشىء مثل ذلك".

- نعم، كانت هى فتاة بيل. هاتى لى فنجانا من الشاى.

- اصعد لغرفتك، وغير ملابسك، وسوف أحضر لك الشاى.

وجاءت بعد دقيقة قبل أن أدخل الحمام، وقد أحضرت الشاى والبسكويت، ووضعته على الطاولة بجوار زهرة الأزاليا وقالت: "هل تعرفها يا سيد آلان؟

- لقد قابلتها مرة واحدة أثناء الحرب. هذه خصوصيات الأسرة يا آنى، لا أريد أن يتكلم فيها أحد.

- مفهوم يا سيد آلان.

دخلت الحمام وبدأت المياه الدافئة تعمل على استرخاء أعصابى شيئا فشيئا. ورحت أعود لادراكى رويدا رويدا، وكانت قوة الإدراك تتغلب على انفعالاتى.

تذكرت فى الحمام ثمانية عشر عاما شاركنى فيها بيل هذا الحمام، إنه روح هائمة اليوم تقف مع روح أخرى، وهما لا يستطيعان أن يفعلا ما كانا سيفعلانه لو أنهما كانا على قيد الحياة.

إنى أسمعهما وهما فى صمتهما يقولان لى أن أقوم بعملهما بدلا منهما. كانا يقفان متشابكة أيديهما. نعم للأرواح قوة لا ينكرها أحد.أخبرانى المياه الدافئة، "إذا أردت الراحة والاستقرار، فاذهب هناك فى ذلك المطعم الصغير الذى يبعد اثنى عشر ألف ميل. هناك الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يقف جنبك، ويساعدك، ويتفهم موقفك".

ارتديت ملابسى على أكمل وجه، وفى يدى الشنطة، ونزلت فقابلنى أبى وهو خارج من غرفته وقد حيانى: "صباح الخير يا آلان، إنك مستيقظ مبكرا".

فرددت عليه التحية، وقلت له: "نعم بالفعل، بل لم أنم طوال الليل، لقد وجدت هذه الشنطة التى تخص تلك الفتاة". ثم أضفت". أريد أن أخبرك بشىء قبل أن تستيقظ أمى".

فقال لى: "تعال إلى مكتبى"، ودخلنا المكتب وقلت له قبل أن أبدأ الحديث: "أريد أن أقوم بمكالمة قبل أن أخبرك كل شىء"، ورفعت سماعة التليفون وطلبت بالارات ثم ميلبورن، ثم طلبت رقما أمليته للمستقبل قائلا له: "نعم اسمها فيولا داوسن". ثم وضعت السماعة منتظرا المكالمة بينما قلت لوالدى: "سأسافر إلى انجلترا فورا لمدة أسبوع، وسأعود لكى أستقر هنا للأبد". فقال لى: "شىء، على ما أعتقد، يخص فيولا داوسن يا آلان". فقلت له: "نعم، والآن سأحكى لك لماذا".

انتهت

سلسلة كتاب الهلال تقدم:

السفر إلى ممالك الخيال

ملامح وأصوات في الرواية العربية

اعتدال عثمان

يصدر ٥ أكتوبر ٢٠١٦

سلسلة روايات الهلال تقدم:

جراندول

خالد البسّام

تصدر ١٥ أكتوبر ٢٠١٦

أحدث إصدارات روايات الهلال عامى ٢٠١٥-٢٠١٦

اسم الرواية	المؤلف	الشهر	السنة	رقم العدد
رمضان المسيحي	عادل سعد	سبتمبر	٢٠١٥	٧٩٩
سرابيوم	محمود عرفات	أكتوبر	٢٠١٥	٨٠٠
بشر نسيهم الله	ألبير قصيري	نوفمبر	٢٠١٥	٨٠١
حوّادم	بهيجة مصري إدلبي	ديسمبر	٢٠١٥	٨٠٢
بوابات الرحيل	بكري عبدالحميد	يناير	٢٠١٦	٨٠٣
العجوزان	جار النبي الحلو	فبراير	٢٠١٦	٨٠٤
شطح الغزالة	علي عيد	مارس	٢٠١٦	٨٠٥
سبع جنات	منير مطاوع	أبريل	٢٠١٦	٨٠٦
العائد من موته	إبراهيم الفقيه	مايو	٢٠١٦	٨٠٧
أمريكا	فرانز كافكا	يونيو	٢٠١٦	٨٠٨
لودميلا	لينا كيلاني	يوليو	٢٠١٦	٨٠٩
مسامرة الموتى	محمد الغربي عمران	أغسطس	٢٠١٦	٨١٠

"أطلقت النار على مقاتلة، واكتشفت بعد ذلك أنها صديقة وكانت تلجأ لنا. أظنها من التشيك أو بولندا، ولكن كل من فيها ماتوا، الأمر كله كان خطأ، وتعرضت للتأنيب القاسي بسببه، لأنهم قالوا إن الطائرة كانت قد أنزلت عجلاتها، وأنا لا أتذكر هذا، ولكنى لما رأيتها تقترب أمسكت بالمدفع أورليكون، وأطلقت عليها النار، لم يكن لدى الخبرة بما يجب أن أفعله. لقد أصبت بحالة من الاكتئاب، ولم أستطع النوم".

بتلك الواقعة تحولت حياة بطلة الرواية "جانيت برنتيس..." إلى تراجيديا. صارت الفتاة التي التحقت بالبحرية البريطانية عام ١٩٤١ ضحية قدر يقودها إلى مصير لا تستطيع الفرار منه. توالى انتقام القدر قصاصا لهذا الخطأ غير المقصود، فشهدت مصارع أحبتها: أبيها وأمها وعمتها وزميلها "بيل" الذي تعاهدت معه على الزواج. وأمام وحدتها، لم تملك إلا التوجه إلى بيت أسرة "بيل" في أستراليا، لتعمل خادمة لأبويه، وتحمل اسما آخر "جيسي بروكتر"، وقبل عودة أخيه "آلان" جريحا هو الآخر، أفقدته الحرب العظمى قدميه، لا تتردد في اتخاذ قرار شديد الصعوبة.

"القداس".. جدارية روائية عن صراع الحب والموت، عن حرب لا تكتفي بحصد الأرواح، ولكنها تترك ندوبا في النفوس، وجراحا لا يشفيها الانتحار.

نيفيل شوت: روائي بريطاني (١٨٩٩ - ١٩٦٠) عمل مهندسا للطيران، وكتب ٢٣ رواية حقق أغلبها أعلى معدلات للبيع عند صدورها، وتحول بعضها إلى أفلام قام ببطولتها نجوم منهم جريجوري بيك وأفا جاردنر، وتحول بعض رواياته إلى مسلسلات تليفزيونية في بريطانيا.

وعلى الرغم من شهرته العالمية، لم تحظ المكتبة العربية بأي ترجمة لرواياته، وتأتي «القداس» التي تصدرها سلسلة «روايات الهلال» باكورة الترجمات العربية لأعمال روائي مرموق لا يزال يحظى باهتمام القراء ومنتجي السينما والدراما التليفزيونية في بلاده.

شرقاوي حافظ

كاتب ومترجم مصري، ترجم إلى العربية أعمالا نقدية وإبداعية منها: «مختارات شعرية» من الشعر الانجليزي الكلاسيكي، «قصيدة النثر» لمايكل بينديكت، «عندما تسقط هالة» قصص لكتاب أمريكيين، «امرأة من القاهرة» لنويل باربر، «هل للشعر أهمية؟» لدانا جويا، «الجوع» لكنوت هامسون، «مبكرا في الصباح» للشاعرة اللتوانية سالوميا نيريس، «قصائد ماو تسي يونج» للزعيم الصيني ماو تسي يونج.